# إليوت سميث
# وأصل الحضارة

حين أتأمل الشخصيات العظيمة التى أثرت فى حياتى تغييراً أو توجيهاً، وأبحث القوة الجذبية التى جذبتنى إليها ، أجد أنها ثلاثة طرز :

فأما الطراز الأول فهو أولئك الذين تتسم حياتهم أو مؤلفاتهم بغلواء حين يحيون أو يفكرون على القمة والذروة . فهم نيتشه فى جنونه المقدس، بجيل حياته إلى مغامرة فلسفية ويدعونا إلى أن ننسلخ من رواسب الخرافات الماضية ونتولى بأنفسنا مصير مستقبلنا . وهم دستوفسكى فى غلواء الحب الغامر للبشر ، والإحساس الدينى الذى تتذبذب به أوتار نفسه . وهم غاندى الذى يكافح إمبراطورية سوداء بكلمات عذبة من الطهر والشرف فيخجل منه العالم ويسلم باستقلال الهند .

وأما الطراز الثانى فهو أولئك الذين أعطونى منهجاً للحياة . فهم

جيته الذى عاش طالباً مدى حياته يزيد وجدانه بالتوسع فى الثقافة والزيادة من الاختبارات ويشتغل بالسياسة والأدب والعلم والفنون . وهم برناردشو يجعل من أدبه كفاحاً للظلم والاستبداد والدناءة والقبح وهم « هـ. ج . ولز » يرفع الصحافة إلى مقام الفلسفة ، فيدرس شئون العالم إلى تدين بشرى جديد كأنه إحساس يغمر قلبه وعقله .

وأما الطراز الثالث فهم أولئك الذين أعطونى المعارف الخصبة أو الأفكار الحوامل . مثل فكرة التطور التى أحدثت لى مركبات ثقافية كأنها العقدة النفسية فى المريض تدأب فى تفرع . ولكن مع التسلل والتستر . ولقد استطاعت هذه الفكرة الداروينية أن تجعل حياتى جميعها استطلاعاً دائماً . وهم فرويد الذى حملنى على دراسة العشرات من الكتب ، وهم « إليوت سيميث » الذى فتح لى من أبواب التاريخ البشرى مالا أزال أنفذ منه إلى ميادين فسيحة من الفهم والعلم .

هؤلاء علمونى . . أكسبونى ، بالحياة الغالية التى عاشوها على القمم إيحاءات كأنها صلوات بالقلب . أو أعطونى منهجاً أعيش به عيش الخدمة والكرامة والشرف مع الرضى بالتضحية . أو غرسوا فى ذهنى غراساً صالحة تنمو وتتفرع كأنها نبت ينير خلايا المخ ويسطح أنواراً تقشع ظلام الجهل .

* * *

التاريخ هو فى صميمه درس العوامل الجغرافية والاقتصادية التى أثرت وغيرت المجتمعات البشرية التى عاشت فى بقعة معينة من الأرض . وتاريخ مصر هو جغرافيتها ؛ هو زراعتها التى أوجدت مجتمعاً مستقراً يثبت فى مكانه ثبات الزراعة فى الأرض .

وليس لأمة تاريخ مالم يكن هناك تفاعلات اقتصادية بين الأفراد بحيث تؤدى هذه التفاعلات إلى إيجاد مؤسسات مثل المحاكم والمعابد ونحوهما . أما مادام ليس هناك مؤسسات . كما هى الحال بين الأسكيماويين حول القطب الشمالى . فإنه لن يكون هناك تاريخ .

ثم مادام كل فرد يكسب لنفسه وأولاده فقط ؛ ولا يستطيع أن يريد ؛ فإن المجتمع لن يستطيع أن يدخر مقداراً من المال لإيجاد هذه المؤسسات الاجتماعية التى يحتاج إليها . ولذلك ليس عند الأسكيماويين حكومة لأنه ليس هناك فائض من كسب الأفراد يكفى لإيجاد مجموعة المؤسسات التى نسميها حكومة . ولذلك أيضاً ليس لهم تاريخ .

وقد كان الإنسان قديماً يعيش فى الغابات كما لا تزال تعيش القردة العليا . وكان يجمع طعامه ولا ينتجه . والفرق عظيم جداً بين الجمع وبين الإنتاج .

فإن البشر ينتجون طعامهم هذه الأيام ، ولذلك بلغوا ٢٣٠٠ مليون . فى حين أنهم كانوا لا يزيدون على أربعة أو خمسة ملايين حين كانوا يجمعون الطعام من الغابات جمعاً ، أى يلتقطون الثمرة البرية أو يقتلعون الجذور الطرية أو يصيدون الوحش أو يأكلون الحشرات والزواحف وسائر الحيوان .

ولكن ليس الفرق بين الجمع والإنتاج كميًّا فقط . لأن هذا الفرق هو فى صميمه فاصل بين الإنسان البدائى الساذج الجوال ، وبين الإنسان المتمدن المستقر الذى عرف الزراعة أى عرف الإنتاج .

وهنا قيمة إليوت سميث .

* * *

كان إليوت سميث أستاذاً للتشريح فى كلية ( مدرسة ) قصر العينى

قبل نحو أربعين أو خمسين سنة . وقد تعلم على يديه كثير من أطبائنا مثل على إبراهيم وجورجى صبحى وأحمد شفيق . وكانت له هواية إلى جنب الحرفة ، وكان ، كما هو المألوف ، يهتم بهوايته وبحرفته . بل انتهى فى أخريات حياته إلى احتراف الهواية .

وهذه الهواية هى تاريخ مصر .

ولكنه لم يكن يدرس تاريخ مصر كى يتعرف على تاريخ مصر ، وإنما كان يهدف إلى درس تاريخ الحضارة البشرية فى العالم كله عن طريق الدرس لأصول الحضارة المصرية التى انتشرت حول ضفتى النيل فى العشرة آلاف سنة الأخيرة .

واستطاع أن يثبت أن مصر هى أصل الحضارة للعالم كله ، وليس ذلك لأن أسلافنا كانوا أذكى من سائر البشر ، وإنما لأن جغرافية مصر قد تفاعلت مع الإنسان المصرى بما لم يتفاعل أى وسط آخر مع الإنسان ، فكانت النتيجة ظهور الحضارة فى مصر .

وبهذه النظرية نقل إليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الأصل إلى وحدته ، كما سبق أن فعل داروين حين رد الأحياء إلى أصل واحد وأصبحنا نتتبع تطور الحضارة وتنقلها من قطر إلى آخر عن سبيل الكلمات والآثار والعادات الفرعونية .

ولهذا الرأى الجديد مدرسة يعد تلاميذها بالألوف ، ولا تقل المؤلفات فى تأييد هذا الرأى عن ثلثمائة كتاب فى لغات مختلفة .

وقد كانت مؤلفات إليوت سميث عندى انبلاجاً ذهنياً قادنى إلى دراسات مختلفة ، كما أثمر مركبات ثقافية ما زلت فى اشتباكتها . وقد ألفت كتابى : « مصر أصل الحضارة » وأنا فى غبطة الفرح بهذا الفهم الجديد للدنيا والبشر .

ولا يعدل هذه الغبطة عندى سوى اهتدائى إلى نظرية « التفسير الاقتصادى للتاريخ » . وهى النظرية التى جعلت التاريخ علماً يقاس ويوزن ؛ وليس روايات لذيذة أو مصادفات غير معللة . والحق أن نظرية الأصل المصرى للتاريخ البشرى كله تستند فى أساسها إلى العوامل الاقتصادية ؛ وأهمها هذا النيل الذى يروى الوادى فينتج الزرع .

* * *

وبؤرة البحث عند إليوت سميث تنحصر فى أن الإنسان البدائى الذى كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى فى مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يعم الوادى فى مواعيد معينة كل عام ؛ حتى إذا انحسر انطلقت النباتات وكست الأرض بالخضرة النضرة التى كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانية . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيوية ؛ وهو أصل النبات ؛ فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك . وينمط الرى . وهذه هى الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظمون الرى وفلكيون يعينون الأوقات الزراعية . وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول . وهنا تنشأ الحكومة التى يرأسها مهندس أو فلكى تنسب إليه صفات الألوهية لأنه يدرى مالا يدريه غيره من الهندسة أو الفلك ؛ وهو يعيش كأنه ملك بل ملك يطاع . فإذا مات أصبح قبره معبداً ، كما نرى فى عصرنا كيف يميز العامة الممتازين بأضرحة يتبركون بها ويزورونها .

. . وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تحترم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين للزراعة ؛ وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ؛ وإلى صناع يصنعون الآلات الزراعية . وكل هؤلاء لا يزرعون . فنشأ من ذلك الحكومة والتجارة والفنون . وهذه هى الحضارة .

ثم يموت العظماء فتنشأ الأضرحة العظيمة التى تستحيل إلى معابد . وهذا هو الدين البدائى .

ويجب ألا ننسى هنا أن كلمات القمح والبر والحنطة هى جميعاً فرعونية وذلك لأن أسلافنا هم الذين زرعوها لأول مرة فى التاريخ وعينوا أسماءها ، ولعله كانت هناك فروق بين بذور القمح أدت إلى تعدد هذه الأسماء .

والزراعة هى الأساس الأول الذى نبتت عليه الحضارة الأولى . أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير المعارف القليلة الخاصة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .

فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلا من التجوال ، وبسطت الآفاق لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم .

* * *

وإلى هذا نفهم كيف نشأت الحضارة الأولى فى مصر . وبقى علينا أن نعرف كيف خرجت من مصر إلى سائر العالم .

وقد استطاع إليوت سميث أن يكشف لنا عن أسرار النفس البشرية ، أو بالأحرى يهتدى إليها عن طريق البحث فى انتقال الحضارة المصرية الأولى إلى أقطار العالم المختلفة .

فهو يوضح لنا أن غاية الإنسان البدائى أن يطيل عمره وأن يتقى الموت . ونحن نعرف من التحنيط أن المصرى القديم كان يعتقد فى سذاجة أنه مادامت الجثة قد حنطت واستحالت إلى موميا متقنة فإن الحياة ستمتد بها فى العالم الآخر .

وكان التحنيط يحتاج إلى بعض المواد النباتية والمعدنية من الأقطار البعيدة ، وهذه المواد كانت تقف الفساد فى الجثة كما تكسبها عطراً حسناً .

وتنقل المصريون فى جلب هذه المواد ونقلوا معهم حضارتهم إلى أقطار بعيدة ، وخاصة عندما نعرف أن بعض البعثات المصرية كان ينقطع بها الطريق فلا تعود بل تبقى فى قطر ناء بين شعب غريب بدائى لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصرية ، وتعيش هناك إلى الأبد .

ومن هنا نعرف لماذا وجد تمثال الرب آمون فى روسيا بالقرب من جبال أورال . ولماذا عبد رب الشمس فى مكسيكا ، كما عبد فى مصر ، من حيث إحاطته بالثعبان . ولماذا حنطت الجثة فى أمريكا على الطريقة المصرية . ولماذا وجدت الأهرام فى إيطاليا والسودان . ولماذا توجد فى اللغة الفنلندية كلمات فرعونية . ولماذا ترجع أبجدية الخطوط فى جميع اللغات إلى الهيروغليفية المصرية . ولماذا يعمم التقويم المصرى (الشهور والأيام ) أوربا بل العالم كله إلى الآن ، ولماذا بنيت المعابد وذكرت الأساطير على الطريقة المصرية . بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة ، ابن الشمس ، أى ابن رع . وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التى يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصرية الاسم كما سبق أن ذكرتها وهى : قمح ، بر ، حنطة .

وفى مصر يسمى الأقباط أسقفهم أحياناً باسم إيسذوروس . وفى أوربا تسمى المرأة باسم إبسيدورا . ومعنى الأسمين « عبد إيسيس » أى الربة إيسيس . وكهنة مصر الآن هم ورثة الكهنة أيام الفراعنة . وكانت شارة الكاهن المصرى القديم ذلك الثعبان الذى كان يحيط بالرب رع . وهو — أى الثعبان — لا يزال شارة الأسقف القبطى . وهو يرى على رأس عصاه إلى الآن .

ولكن لما كان الكاهن المصرى طبيباً وساحراً أيضاً ، فإن الثعبان هو الآن شارة الطبيب فى أوربا . وفى اللغة العربية لا يزال معنى الطب هو : السحر : الكهانة .

بل هناك إشارات صغيرة تدل على تسلسل الثقافة الفرعونية من منف وطيبة إلى باريس ولندن . اعتبر قول الأوربيين « يوم أحمر أو ليلة حمراء » للدلالة على أوقات السرور والقصف والاحتفال . ونحن نقول فى مصر « ليلة حمراء » فى هذه المعانى أيضاً . والأصل هو عادة أسلافنا فى كتابة أيام الأعياد بمداد أحمر . والعيد قصف ولهو .

هذه الثقافة المصرية القديمة التى تفشت فى العالم القديم لم يكن من الضرورى أن يكون القائمون بها مصريين ، لأن البعثة المصرية التى وصلت إلى الصين مثلا حيث تركت التمساح وجعلت تمثاله شعاراً للصينيين ليست هى التى ذهبت إلى أمريكا وأوجدت التحنيط وعبادة الشمس التى تحيط بها هالة الثعبان . لأن هذه البعثة التى ذهبت إلى أمريكا كانت فى الأغلب هندية أو صينية أو جاوية قد تأثر أفرادها بالثقافة المصرية .

وأذكر البقرة هاتور المصرية ، وأذكر تقديس البقرة فى الهند ؛ وأذكر أيضاً ملوك إفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رمزاً إلى الاستيلاء على العالم .

بل أذكر أيضاً دعوى الحق الإلهى لملوك أوربا ، وهى الدعوى التى كافحتها الشعوب الديمقراطية . ولا ننس دعوى الألوهية عند الفراعنة . بل هناك ما يرجح أن معظم الأسر المالكة فى العالم يرجع إلى أصل فرعونى ؛ وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب المواد والطيوب للتحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون ، فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الفرد ملكاً على البقعة التى كانت تحتلها بعثته حتى إذا استقر العرش الجديد خرجت بعثة أخرى . إلخ .

ولم يكن التحنيط الباعث الوحيد لهجرة المصريين إلى الأقطار

البعيدة . فإن الإنسان المصرى الذى كان يرغب فى بقاء حياته بالتحنيط ، كان أيضاً يحب أن يطول عمره على الأرض قبل التحنيط . فكان يجمع الودع ويحمله للمشابهة العظيمة بين الودعة وبين عضو التناسل فى المرأة ، ذلك أنه كان يعتقد أن هذا العضو هو أصل الحياة ، ومن هنا هذا الاشتقاق العربى وهو « الحياة من الحيا » أى عضو التناسل فى الأنثى . ثم صار أيضاً يجلب الذهب ويصوغه ودعاً لجماله . ثم نقل ميزة الودعة إلى الذهب . فصار الذهب يطلب لذاته لأنه يطيل الحياة مثل الودعة ، بل صار الذهب إكسير الحياة .

الذهب حجر الفلاسفة ، الذهب أصل النقود ، كل هذا من الاعتقاد المصرى القديم بأنه ، أى الذهب ، يطيل العمر .

ثم أذكر بعد ذلك الكيمياء التى نشأت من الرغبة فى إحالة المعادن إلى ذهب . بل ماذا أقول : إن كلمة كيمياء نفسها مصرية وهى خيمى أو كيمى ، أى مصر ، أى الأرض السوداء . والكيمياء هى «العلم المصرى» .

وبعد الذهب صار الإنسان المصرى يجلب الأحجار الكريمة اعتقاداً بأنها تطيل العمر . وما زلنا فى مصر نشق العين العليلة بتعليق حجر عليها أو فوقها . . . وما زلنا ننشد البخت بضرب الودع ، وكلمة « المرجان » تنطوى على معنى الحياة الطويلة فى الفارسية .

وإطالة أعمارنا على الأرض بالذهب والأحجار الكريمة ، وإطالة أعمارنا بعد الموت بالتحنيط ، كلتاهما دفعت الإنسان المصرى إلى الهجرة إلى الأقطار النائية . فتفشت الحضارة المصرية بهذه الهجرة فى أنحاء العالم وأخرجت الإنسان من التوحش وجمع الطعام من الغابات إلى التمدن وإنتاج الطعام بالزراعة . والزراعة أوجدت الحكومة ، والدين ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، والبناء ، والقانون .

* * *

نشأ الدين البدائى فى مصر وكانت غايته استبقاء الحياة بعد الموت بتحنيط الجثة . فإذا كان الميت عظيماً صار إلهاً بعد موته . فلما عرفت الزراعة أصبح للدين مهمة أخرى هى إخصاب الأرض وإنتاج المحاصيل . وإلى عصر الإسكندر بقى هذا التفكير البدائى حتى إن كهنة مصر قد حالوا الإسكندر إلى إله . وقرن آمون لا يزال منقوشاً على النقد الإغريقى الباقى من أيامه . ولا يزال الكهنة يباركون على الزراعة فى أوربا إلى الآن .

ومن الممارسات الدينية الباقية نعرف الكثير من نشأة الدين المصرى القديم . فإن البخور كان يطلق على تمثال الميت كى يكسبه رطوبة وعرقاً كأن الحياة قد عادت إليه .

وقد نشأت الفنون من هذه الثقافة الدينية القديمة . فإن التمثال صنع أولا كى تلجأ إليه الروح إذا كان الجسم قد فسد . والرسوم التى تروى لنا حياة الميت قد احتاجت إلى الرسامين والمعبد ، وهو فى الأصل الضريح الذى احتاج أيضاً إلى البنائين والنحاتين .

وجميع الفنون الحديثة ترجع إلى بؤرة مفردة هى الضريح المصرى ومركباته السيكلوجية . ورسم الميزان للعالم الآخر مألوف لا يخلو منه معبد ، وهو يعين الجنة التى تحوى الشجر والثمر للبررة ، كما يعين جهنم التى تحوى النار للفجرة . ومن هنا ظهر معنى العدل .

بل إن تحنيط الميت هو الأصل فى توبلة الطعام . لأن الملح والطيب والأفاويه التى كان يحتاج إليها الميت صارت تستعمل فى الطبخ كى يطيب الطعام ، ومن هنا كان القول العامى المألوف فى أيامنا أن الطعام « محنط » أى متوبل .

ودراسة التاريخ المصرى القديم هى دراسة البدايات ، بداية الزراعة وبداية الصناعة ، وبداية الحضارة والثقافة . وإن الغيبيات التى سادت

الأذهان البشرية نحو ستة آلاف سنة لتتكشف واضحة الأسس مفهومة البناء عندما ندرس الضريح المصرى .

* * *

لم أكن أنبعث فى دراساتى للفراعنة بباعث وطنى ، ولم يكن لفتوحات تحتمس ورمسيس وأمثالهما ذلك الوقع الذى يحسه أولئك الذين يستخدمون التاريخ لإشعال الوطنية . بل كذلك لم تكن دراسة التاريخ عندى محض السرد القصصى والتراجم والحروب. وظنى أنه لو لم يكن وراء دراسة الفراعة هذه النظرية القائلة بانتشار الثقافة من بؤرة الضريح المصرى لما كان التفانى يزيد على المطالعة العابرة .

ولكن هذه النظرية كانت تحوى العديد من المركبات الثقافية التى جذبتنى وحملتنى على التفطن لأصول الحضارة ؛ ومن هنا إغراؤها القوى لا ستمرار الدراسة . وإحساسى نحو الفراعنة هو لذلك بشرى وليس وطنيًّا .

ولقد قرأت « فجر الضمير » للمؤرخ الأمريكى «بريستد» . وهو يشيد بالأخلاق العالية للمصريين قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة . بل إنه يقارن بين الأخلاق التى دعا إليها موسى فى الوصايا العشر وبين الأخلاق المصرية فيقول بأفضلية هذه على تلك ؛ ويضرب المثل بأن موسى قد حرم الشهادة بالزور فقط ولكن المصريين قد حرموا الكذب إطلاقا . والكذب بالطبع يشمل شهادة الزور ، ولكن ليس العكس كذلك .

ولكنى ، أنا المصرى ، أحس أنى أبعد ما أكون عن هذا الإحساس .

يجب أن ندرس التاريخ بالروح البشرى ، وأن نذكر أنه إذا كانت مصر قد أنشأت الحضارة الأولى فإن الفضل فى ذلك يعود إلى النيل الذى قهر المصرى على أن يتعلم الزراعة لمواظبة فيضانه ولانبساط

الوادى : وليس للذكاء فذ فى أسلافنا .

* * *

والحضارة عالمية قد أسهم كل شعب بنصيب فيها . وإذا كان للمصريين فضل الاختراع للكتابة فإن للهنود فضل الاختراع للأرقام ، وما كان يمكن أن تكون هناك نهضة علمية لولا هذه الأرقام الهندية . ولولا الإغريق لما انفصلت الحقائق الفنية والعلمية عن « المعارف » الدينية أى ما كان يمكن للمنطق أن يتغلب على العقيدة . ولولا الإمبراطورية الرومانية ثم الإمبراطورية العربية ، لما تعارفت الشعوب هذا التعارف الذى انتهى بوجداننا البشرى الحاضر .

ومع أنى قد قرأت فى هذه النظرية وارتباطها نحو خمسين أو ستين كتاباً فإنى ما زلت فى اشتباكاتها أترصد مكتشفاتها الجديدة فى جميع أنحاء العالم . وأحس بأواصر الأجيال الماضية التى تربطنا نحن المصريين بكافة البشرية :

# هافلوك إليس
# والزواج الانفصالى

مات « هافلوك إليس » قبل الحرب الكبرى الثانية ، ووصفته إحدى المجلات الأوربية الكبرى حينئذ بأنه كان أعظم رجل متمدن فى أوربا .

وأنا أحاول هنا أن أروى للقارئ تاريخ حياته ، ووصف مؤلفاته ، كى يستخرج العبرة من هذا الوصف . لأنى أعتقد أن عندنا فى مصر من يخالف هذا الرأى ، فيحكم بأن هافلوك لم يكن متمدناً وإنما كان متوحشاً . وأنه لم يعش الحياة الصالحة . وإنما هو أفسد حياته بل حياة زوجته . والواقع أن شيئاً من هذا الفساد قد وقع لزوجته . . . ولكن ليس هناك ما يدل على أن أسلوب الحياة الذى اتخذه هو الذى أدى إلى هذا الفساد ، وإن كان هناك شبهات تبعث على هذا الظن .

وإذا أنت سألت عن هافلوك إليس فى إحدى المكتبات بالقاهرة عرفت

أنه معروف مشهور بمؤلفاته الجنسية . وهى نحو ستة مجلدات ضخمة هى أدب وعلم وفلسفة ، تحس وأنت تقرأها أن كاتبها رجل فن وعلم وفلسفة . وهو يكتب بأسلوب مكين قد أحكمت عباراته كما نقيت من الزوائد . وهو كثير الإشارة إلى أقوال الفلاسفة من الإغريق القدماء إلى الأمريكيين المحدثين . وهو لا يرتجل الفكرة ولا يلتزم مذهباً . وإنما يزن الآراء ويعرض لها فى إسهاب شرحاً ونقداً . ثم ينتهى إلى الخلاصة التى يستقر عليها ويدعو إليها .

وهذه المجلدات الستة عن الشئون الجنسية هى أروع ما كتب عن هذا الموضوع فى لغة من لغات العالم . وإنك لتعجب حين تقرأ له فصلا واحداً عن البغاء . إذ تدهش لما يروى لك عن تاريخه فى الأمم القديمة والحديثة ؛ وعن قيمته ومكانته من الحضارات المتعاقبة ؛ وعن أقوال القديسين المسيحيين الذين أيدوه ؛ وعن القوانين العصرية التى تناولته . وحبذا لو قرأ هذا الفصل ودرسه أولئك الذين عملوا لإلغاء البغاء فى مصر ، ولكن نكبة الساسة فى مصر أنهم لا يدرسون الكتب الأوربية المنيرة .

كان هافلوك إليس من الرواد الذين شقوا الطريق وبسطوا الآفاق لهذه الدراسات قبل فرويد . فإن نشاطه العلمى كان فى ذروته فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٩٢٠ . وهناك فرق أصيل بينه وبين فرويد ، ذلك أن هافلوك إليس كان يبحث الشئون الجنسية من حيث إنها نشاط سليم يتصل بالأصحاء من الناس ، ويبحث أثرها فى حياة الشبان العزب والمتزوجين وفى الحياة العائلية وتربية الأطفال ومكانها فى الحضارة ؛ أما فرويد فيبحث النشاط الجنسى من ناحية المرض لا الصحة .

وقد كان فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٨٩١ يرأس تحرير سلسلة من الكتب العلمية التى تتناول المجتمع بالبحث العلمى وتضم مجلدات تبحث

الإجرام وأخرى تبحث المشكلة اليهودية وأخرى تبحث الوراثة . . . إلخ .

كما أن له مؤلفات يكفى ذكر أسمائها كى نعرف أن موضوعاتها أدبية ؛ مثل رقص الحياة . وروح أوربا .

وهو فى كل ما يكتب يمتاز بالنضج والإحاطة والنزاهة ؛ إذ هو لا ينتسب إلى حزب أو طائفة ولا يدافع عن مذهب . وإذا نحن اتهمناه بالغرض أو بشىء منه فإن هذا الاتهام ينحصر فى إكباره من شأن النظرية العلمية ؛ وهو هنا يعذر فإنه عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وامتد نشاطه إلى الثلث الأول من القرن العشرين . وكان الإيمان بالحضارة والرقى يعتمد أكبر الاعتماد على العلم . فإن الأمم الأوربية طوال القرن التاسع عشر كانت على اقتناع بأنها قد اهتدت عن طريق العلم إلى مفتاح يفتح لها جميع الأبواب المغلقة ، وأن سعادة الإنسان وقوته وصحته وثقافته كلها ترتبط بالعلم .

وقد نشأ طبيباً . ولكنه لم يمارس الطب لأنه قنع بالتأليف وقضى معظم حياته وهو فى فقر لم يشك منه . ولكن المتأمل لسيرة حياته التى كتبها بنفسه يحس الضيق الذى كان يعانيه . فإنه كان يسكن مسكناً وضيعاً ويطبخ طعامه بنفسه ، إذ لم يكن يكسب من قلمه ما يكفى لتناول طعامه فى المطاعم أو يمكنه من استخدام خادم . ولكنه فى السنوات الأخيرة من عمره تمكن من الاتصال بإحدى الصحف الأمريكية التى كانت تستكتبه مقالا أسبوعيًّا عن شئون أوربا ، وقد صرح بأن الأجر الذى كان يتناوله عن هذه المقالات كان يزيد أضعافاً على ما كان يحصل عليه من التأليف والصحافة معاً فى بريطانيا .

ومع أنه قد مات منذ أكثر من عشر سنوات فإن مؤلفاته ماتزال تقرأ وتجد الأنصار والخصوم لحيويتها ، حتى لقد قرأت هذا الأسبوع

إعلاناً عن كتاب جديد ينشر له فى الولايات المتحدة ويقول الناشر إنه لم يسبق نشره .

وفى كل ما ذكرنا لانجد شيئاً فذّاً أو شاذّاً فى حياة هافلوك إليس ، إذ هو مؤلف أو صحفى مثل سائر المؤلفين أو الصحفيين . وإن كان يمتاز عنهم بأنه جاد مثابر نزيه مفكر متبصر ؛ وليست هذه الصفات عامة بين من يؤلفون أو يكتبون للصحف .

ولكن ميزته الأصلية أنه اتخذ أسلوباً معيناً فى عيشه لم يتخذه غيره . وهذا الأسلوب هو الذى حفزنا إلى كتابة هذا الفصل كى ننبه القارئ المصرى إليه . ولسنا نشك أنه سوف يجد التقبيح والازدراء من تسعين فى المائة من القراء كما قد يجد الاستحسان من عدد قليل . ولكن ليس هذا غرضنا . إنما نحن نقصد إلى أن نوضح العوامل التى أدت إلى اتخاذ هذا الأسلوب وتقديره فى الحضارة القائمة .

فقد عرف هافلوك إليس فتاة إنجليزية تدعى الآنسة « إديث ليز » قبل نحو ستين سنة . وكانت هذه الفتاة من أولئك الفتيات الجديدات اللائى كن يسمين فى إنجلترا باسم المرأة الجديدة ، وقد كن منذ عام ١٨٩٠ أو قبل ذلك يدعون دعوات جريئة مثل التعليم الجامعى للمرأة ، ومثل حقوق الانتخاب للمجالس النيابية ، والمساواة الاقتصادية بين الجنسين ، وتولى الوظائف العامة .

وكانت إديث ليز أكثر إيماناً بهذه الحقوق وأكثر إسرافاً فى الدعوة إليها ، وكانت سكرتيرة لأحد الأندية النسوية فى لندن . وكانت تقول إن البيت على حالته الحاضرة — أى حوالى سنة ١٨٩٠ — هو طاحون تسخر فيه الزوجة فتعمل طول نهارها وبعض ليلها وهى مجهدة لا يتوافر لها الوقت للراحة أو الاستمتاع الاجتماعى أو الثقافى . وأن

هذا الكد المستمر فى البيت ، من حيث الاشتغال بالطبخ والغسل والكنس ، يمكن الا ستغناء عنه بأن نتناول وجباتنا فى المطاعم .

وأنه يجب على كل امرأة أن تؤدى عملا اجتماعيًّا بأن تحترف حرفة تكسب منها كما يفعل الرجال . لأن الاحتراف هو تربية دائمة لها ، وهو يكسبها المال الذى يرفعها إلى كرامة اقتصادية يحسها الزوج فيحترمها . وهى حين تحترف تحس مسئوليات كبيرة لم تكن لتحس بها لو أنها كانت قد قنعت بالنشاط المنزلى فى الطبخ والغسل والكنس ، وأن الحرفة هى الوسيلة لتكوين الشخصية ، ولن تكون للمرأة شخصية إذا هى قنعت بأعمال البيت .

والحق أن هذه الآراء كانت عامة حوالى سنة ١٨٩٠ ، ولكنها كانت آراء فى الهواء ، إذ لم تكن تجد ما يدعمها من النظام الاقتصادى السائد وقتئذ ، لأن الرجال كانوا يستوعبون الأعمال ، ولم يكن هناك غير عدد صغير جدًّا من النساء اللائى كن يعملن ويكسبن .

ويجب أن أقول إن هذه الحال قد تغيرت فى أيامنا هذه ، فإن نحو عشرين مليون امرأة يحترفن الحرف التجارية والصناعية والمكتبية كالرجل سواء فى الولايات المتحدة . وليس هناك شك فى أنهن قد كسبن الشخصية التى أشارت إليها إديث ليز . ولم تتم هذه الحال الجديدة لدعوة نسوية ، وإنما لأن هناك قوات اقتصادية جديدة دعت إليها هى ، قبل كل شىء ، هاتان الحربان الكبريتان لأنهما لما جندتا للجيوش والمصانع الكثير من الرجال أكرهتا المجتمع الأمريكى ، بل المجتمعات الأوربية أيضاً على استخدام المرأة فى المصانع والمتاجر والمكاتب .

ومما زاد هذا الا تجاه قوة أن واجبات المنزل قد اختصرت بالمخترعات الجديدة . فإن الطبخ بالضغط وبالكهرباء قد جعل تهيئة الطعام عملا

لا يتجاوز دقائق بينما كان يستغرق الساعات قبل خمسين أو ستين سنة . والكنس الكهربائى : وكذلك الغسل الكهربائى ، قد أصبحا فى ميسور أفقر العائلات الأمريكية والأوربية الغربية. بل إن التليفون قد أخذ مكان الخادم .

وإذا كانت المرأة الأوربية أو الأمريكية كانت تجد فى المنزل ما يشغلها طوال نهارها قبل خمسين سنة ، فهى لا تجد فيه ما يشغلها نصف ساعة فى اليوم كله. فهى من ناحية تجد أن الأعمال العامة خارج البيت تناديها وتقدم لها المرتب الحسن فى المتاجر والمصانع والمكاتب ، ومن ناحية أخرى لم تعد تجد فى البيت ما يغريها بالبقاء فيه أو يضطرها إليه .

فهذا الذى أبصرت به إديث ليز قبل نحو ستين سنة قد تحقق فى أيامنا . ولا بد أنها قد بصرت بهذه القوات الاقتصادية التى كانت تعمل فى الخفاء ، وتسرى فى المجتمع ، وتنقل المرأة من المنزل إلى المصنع . وهى فى دعوتها إنما كانت تعبر عن هذه القوات أو عن بوادرها الخفية كما كانت تحسها وتتوقع نموها .

كانت إديث ليز قبل نحو خمسين سنة تحلم بما تم فى أيامنا من الوعود الاقتصادية التى حققت استقلال المرأة وكونت شخصيتها .

وكانت آراؤها هذه تغرى أمثال هافلوك إليس بحبها والتعلق بها . وقد تعارفا ، وبقيا مدة غير قصيرة وهما يتعاونان فى الدراسة ويتبادلان فى عطف هذه الآراء التجديدية التقدمية . . . وكانت لندن تختمر فى تلك السنين بآراء تقدمية عديدة .

وتم زواجهما ، وهنا تبدأ قصتنا أو عبرة القصة التى قصدنا إليها حين قلنا إنه ، أى هافلوك إليس ، قد اتخذ أسلوباً معيناً من العيش .

ذلك أننا نفهم من الزواج أنه ارتباط مادى كما هو ارتباط روحى بحيث يعيش الزوجان فى منزل مشترك وإن لم يناما فى سرير مشترك ، يشتركان فى الراحة والنوم ، ويأكلان من مائدة واحدة ؛ ولهما اقتصاديات منزلية مشتركة .

ولكن هذين الزوجين كانا على نية الابتداع لبدعة جديدة هى الزواج الانفصالى ! فإنهما بعد انقضاء شهر العسل عاد كل منهما إلى منزله ، يتلاقيان بمواعيد ، ويشتركان فى سريرهما بمواعيد ، كأنهما عاشقان وليسا زوجين . ولم يكن هذا الا نفصال يرجع إلى ضعف أو نقص فى حبهما وإنما كان عن مبدأ . وهو أن كلا من الزوجين يجب أن يستقل بحياته وحرفته وسكناه وبرنامج يومه لا يفسد عليه ذلك زوجه الآخر .

أو بكلمة أخرى : نحن نرى فى الزواج حياة شاملة تحتوى على جميع التفاصيل الأخرى ، فى حين كان هذان الزوجان يريان فيه أنه بعض الحياة فقط ، وأنه يجب أن يترك الزوج حرًّا لا يتدخل الزواج فى تفاصيل حياته ولا يشملها إذ هو ، أى الزوج ، إنسان أولا له طموحه وآماله وحرفته وهوايته وملذاته . وهو يجب أن يجد الحرية كى يمارسها جميعها فى خلوة وفى استقلال لا يفسدهما عليه الزوج الآخر .

وقد عاشا على هذا الأسلوب أكثر من عشرين سنة يتزاوران كأنهما ضيفان . وفى كل عام يقصدان إلى قرية فى الريف أو إلى أية بلدة على الشاطئ للتشتية أو الاصطياف فيقضيان نحو شهر معاً فى بيت واحد . حتى إذا عادا إلى لندن استقل كل منهما بمنزله دون الآخر .

ومما يذكر أن غريباً لقيهما فى القطار فلم يعرف من حديثهما

أنهما زوجان ؛ إذ كان كل منهما يداعب الآخر ويلاطفه أو يناغيه وظن أنهما عاشقان .

على أن هذه السعادة « الزوجية » لم تدم . فإن الزوجة أحست هوى جنسيًا استسلمت له . فأحبت شابا ، ثم عادت فأحست انحرافاً فأحبت فتاة . وفسدت العلاقة الزوجية بسبب ذلك . ولكنهما لم يعمدا إلى الطلاق .

وهنا يعلل بعض القراء هذا الشذوذ الذى وقعت فيه الزوجة بأنه كان النتيجة المحتومة لهذا الانفصال .

واعتقادى أن هذا الا ستنتاج قد يكون صادقاً . فإن الرجل حين يعيش منفرداً معتزلا للمرأة ، وكذلك المرأة حين تعيش منفردة معتزلة للرجل ، كلاهما يعود عرضة للشذوذ الجنسى . وخاصة إذا كانت هناك زعزعة نفسية سابقة كما نستطيع أن نستنتج مما حدث لهذه الزوجة المسكينة التى احتاجت — فى فترة من حياتها — أن تلجأ إلى مستشفى الأمراض العقلية .

الواقع أننا نجد فى أخلاق هذه الزوجة رعونة وتقلباً لا يدلان على عقل رصين متزن . فإنها احترفت الزراعة سنوات ، ثم احترفت النشر ، أى نشر الكتب ، وأخفقت فى العملين . وكان من رعونتها هذه أن طلبت الانفصال الشرعى ، وهو فى إنجلترا دون الطلاق .

فهل نعلل إخفاق حياتها بهذا الزواج الا نفصالى ، أم نعزوه إلى أنها كانت من الأصل مزعزعة النفس لم تستطع الاستقرار ؟

أظن أن التعليلين مسئولان .

والذى نحسه حين نقرأ سيرة هافلوك إليس بقلمه أن حبه لها قد بقى إلى يوم وفاتها . بل هو يقص علينا إحساساته الأليمة حين رآها

تجرى وراء هذا الشاب الجميل ، ثم بعد ذلك حين زاغت بها الشهوة إلى إحدى الفتيات ، ثم هو يصف لنا فى مرارة كيف حمل جسمانها إلى المرمدة حيث أحرق وكيف حمل اللحاد الرماد وذره فى الجهات الأربع فى الحديقة .

* * *

والآن نقف كى نتأمل هذا الزى الجديد للزواج أو هذا الأسلوب الجديد للعيش . . . وهما زى وأسلوب يتفشيان هذه السنين الأخيرة فى الولايات المتحدة بدرجة خطيرة ، وفى أوربا الغربية ولكن ليس إلى المدى الذى بلغا ، بين الأمريكيين .

وكان « ليون بلوم » الرئيس الاشتراكى السابق للوزارة الفرنسية يدعو إليه ، ويقول إنه خير الأساليب للعيش ، وعلينا هنا أن نفترض الافتراضات والاحتمالات . فنقول إن خروج المرأة من البيت إلى المجتمع فى النصف الأول من هذا القرن كان منتظراً . وقد زادته الحربان الأخيرتان تأكيداً لحاجات المصانع إلى عمل المرأة بدلا من الرجل الذى ذهب إلى ميادين القتال . ثم إن المساواة فى التعليم قد جعلت للمرأة كفايات حرفية أهلتها للعمل والكسب . وأخيراً إحالة المنزل من مؤسسة تقوم على العمل اليدوى إلى أخرى تقوم على العمل الكهربائى ، قد جعل بقاء المرأة فى المنزل طوال النهار شيئاً غير معقول .

وجميع هذه الاعتبارات قد بلغت ذروتها فى الولايات المتحدة لأن المنزل هناك « مكهرب » والمرأة تكسب كالرجل . وكلمة « الشخصية » قد اكتسبت لهذا السبب معناها العصرى للمرأة فى أمريكا . والمرأة التى تنشد تكوين شخصيتها إنما تنشدها بالتعلم والاحتراف والاختلاط بالمجتمع ، وليس بالانزواء فى البيت وهى لذلك حين تتزوج تصر

على استبقاء حرفتها ونشاطها الاجتماعى . وتزيد هذا الإصرار قوة بأن تطلب بقاءها منفصلة فى منزلها وقت الزواج كما كانت أيام عزوبتها .

وحجتها أن حياتها الخاصة وما جمعت حولها من أصدقاء وكتب واهتمامات يجب ألا تنقطع بالزواج . ولكن اشتراكها فى منزل زوج يؤكلها ثلاث وجبات كل يوم ، ويقحم أصدقاءه على حياتها الخاصة ، وربما يعترض على أصدقائها هى ، هذا الاشتراك لا يترك لشخصيتها المجال الحيوى كى تنمو وترقى . لذلك يجب أن تعيش حياتها الخاصة بعد الزواج كما يعيش هو حياته الخاصة . ووسيلة ذلك أن يعيش كل منهما فى منزله الذى كان يعيش فيه أيام العزوبة .

وكثير من الأزواج الذين اضطلعوا بمهام واشتغلوا باهتمامات تزيد على مألوف العامة يحسون الوجاهة فى هذا المنطق . وليست المرأة وحدها هى التى تطلب فى أمريكا وأوربا الغربية هذا الزواج الانفصالى ، وإنما هو للرجل أيضاً حين يرصد نفسه لأهداف اجتماعية يحس أن الروابط الزوجية تقيده وتحول بينه وبين بذل ماله وعمره لتحقيقها . فإن رجل العلم أو رجل الأدب ، أو رجل الفن أو السياسة ، كل هؤلاء يجدون أن الحياة العائلية بمألوفها وارتباطاتها لا تتفق وما يضطلعون به من مسئوليات جسيمة سواء أكانت لأشخاصهم أم لوطنهم .

* * *

عاش هاڤلوك إليس نحو عشرين سنة أخرى بعد وفاة زوجته . وقد شغفت به بعد ذلك سيدة فرنسية وعاشت معه إلى يوم وفاته منذ نحو عشر سنوات .

وقد قرأت معظم ما ألفه هاڤلوك إليس . وإنى أحس أنه كان على فهم عميق للحضارة الأوربية ، وأعنى بهذا الفهم العميق أنه كان يصل حاضر

أوربا بعصر نهضتها فيما بين عام ١٤٥٠ وعام ١٥٥٠ حين شرعت تغير عقائدها وأسلوب معيشتها .

وما زالت أوربا حتى هذا العام فى سبيل هذه النهضة ، تغير عقائدها واسلوب معيشتها . وهذا الزواج الانفصالى هو بعض تجاربها التى سوف تثبت الأيام أنها حسنة أو سيئة .

والفرق بين أوربا وأقطار الشرق أن الأولى دائبة فى التجارب ، تجدد وسائل عيشها وتغير فى مؤسساتها ، أما الشرق فيضفى على مؤسساته قداسة تجمد تطوره وتجعل أبناءه يعيشون فى عام ١٩٥١ كما لو كانوا يعيشون فى عام ٩٥١ أى قبل ألف سنة .

وقد رأى الأوربيون أن العائلة كانت فى الماضى تربى الشخصية ، أما الآن فإنها تعوق هذه التربية . لأن الإنسان الجديد قد زاد إحساسه الاجتماعى عما كان عليه قبل مائة سنة . فهو فى المجتمع بذهنه وجسمه فى عصرنا أكثر مما كان من قبل ، لأنه يشترك فى السياسة والتطور الاجتماعى . ويشتبك فى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

والعائلة بتأليفها الماضى هى إلى حد ما ضد المجتمع . كما نرى مثلا فى ذلك الرجل العائلى المسرف فى التزام بيته ، من مكتبه إلى بيته ، يعيش مع أولاده ، ولا يفكر فى غير سعادتهم ، فهو « فاضل » من الناحية العائلية ، ولكن اهتماماته الاجتماعية فى هذه الحال ضعيفة .

ونحن نلاحظ أنه عندما يقوى المجتمع ، ويتولى الحكم ، وتكون له الكلمة العليا كما هى الحال فى الأمم الديمقراطية ، بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، تضعف الروابط العائلية . إذ يكثر الطلاق . وأيضاً يتجه الرجل كما تتجه المرأة إلى نشاط آخر خارج البيت . . ولكن ليس شك أن الرجل الاجتماعى ، وكذلك المرأة الاجتماعية ، كلاهما

يمتاز بشخصية أكبر وأنضج من الرجل العائلى أو المرأة العائلية . وخاصة إذا كان هذا المجتمع حرًا لاتدوسه حكومة مستبدة ولا تطغى عليه قوات بوليسية تحرمه تطوره وارتقاءه .

إننا نحس حنيناً نحو العائلة وما فيها من استمتاعات الطفولة بين الأبوين ، ولكننا ننسى أن الأم فى السنين الأولى من العمر هى كل شىء ، وأن قيمة الأب ضئيلة . والزواج الانفصالى ، كما هو شائع فى أيامنا فى الأمم الغربية ، يجعل التصاق الأم بأطفالها مكفولا كما كان الشأن قبلا .

وبالطبع ، هذا الزواج الانفصالى لا يمكن أن ينشأ ، إلا إذا كان الزوجان يريان ضرورته لرقيهما . أما إذا لم يجدا هذه الضرورة فإنهما يعيشان معاً . وأغلب الظن أن هذا الزواج الانفصالى لا يزيد فى الوقت الحاضر على واحد فى المائة ، أو أكثر أو أقل قليلا ، فى الأمم الغربية التى أشرنا إليها . وذلك لأن هذا الإنسان الجديد الذى ارتقت شخصيته وزاد إحساسه الاجتماعى على إحساسه العائلى لا يمكن أن يزيد على واحد فى المائة من السكان فى أرقى أمة .

وعبارة « الإحساس الاجتماعى » تعنى الاهتمامات المتعددة بالعلم والفلسفة ، والفن ، والاختراع ، والاكتشاف . لأن هذه الاهتمامات تحتاج إلى إرصاد القوى كلها لإتمامها فى خلوة واستقلال . وقد كان هافلوك إليس من هذه الناحية إنساناً جديداً . ولكننا لا نستطيع أن نبت برأى فى هذه الجدة ، هل هى للسعادة والخير أم للتعاسة والشر ؟

# جوركى
# والأديب المكافح

فى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى نصفه الثانى ، كانت روسيا التى هى الآن جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتى : تتنازعها حركتان أدبيتان ، أو الأحرى اجتماعيتان ، إزاء ضغط الثقافة الأوربية التى كانت تزحف إليها من أوربا الغربية والتى فتح لها بطرس الأكبر صدره حين أراد أن ينقل روسيا من الشرق إلى الغرب .

وكان ، إزاء هذا الضغط الزاحف ، تنشط حركة أخرى يقول دعاتها إن الروس صقالبة لا شأن لهم بالأوربيين . وإن لهؤلاء الصقالبة روحاً وتقاليد وعادات يجب على الروس أن يحافظوا عليها وألا يتلوثوا بالحضارة الأوربية الفاسدة .

وكان تولستوى ودستوفسكى داعيتى هذه الحركة الصقلبية ، كما كان

تورجنيف وجوركى داعيتى الاتجاه الأوربى . وكان التصادم الفكرى بينهما كثيراً .

وهذا التصادم قد رأينا مثله فى مصر . ففى الخمسين أو الستين سنة الماضية رأينا دعاة السفور للمرأة ، مثل قاسم أمين ، يتجهون نحو الغرب ويقولون بالأخذ بالحضارة العصرية . كما رأينا دعاة الحجاب ، مثل طلعت حرب ، يقولون بأننا شرقيون لنا تقاليدنا التى تفضل التقاليد الغربية . بل كذلك حدث فى اليابان والصين والهند . ولكن فى جميع هذه المصادمات يتغلب دعاة الحضارة الغربية لسبب مفرد بسيط ، هو أنها ليست غربية . إذ أن وصفها الحقيقى أنها عصرية جديدة ، فى حين أن ما يسمى حضارة شرقية ، أو صقلبية ، إنما هو تلك العادات والتقاليد القديمة التى أثبت الاختبار أنها ليست كفئاً للوقوف فى وجه الحضارة العصرية .

الحضارة العصرية الصناعية منتجة ، توفر المال والقوة للغربيين . أما الحضارة الشرقية الزراعية القديمة فلم تكن منتجة إلى حد الوفرة ، ولذلك يحيا أبناؤها فى فقر وضعف يغرى المستعمرين الأوربيين باستغلالهم واستعمار بلادهم .

بقيت هذه المعركة بين دعاة القديم الشرقى والجديد الغربى مستعرة إلى عام ١٨٨١ ، حين قتل القيصر إسكندر الثانى . وعندئذ سادت البلاد رجعية سوداء كان من نتائجها أو وسائلها منع المؤلفات اليسارية الأوربية من الدخول فى روسيا واضطهاد المؤلفين الاشتراكيين . وفى مثل هذه الظروف تجرى الدعايات المضطهدة فى الظلام ، وتختمر بأشد وأعنف مما كانت تختمر لو كانت مكشوفة . إذ عندئذ يدخلها العنف الذى لا يتفق والحركات المكشوفة .

ولذلك فشت الجمعيات السرية التى يحدثنا عنها جوركى ، الذى كان

وقتئذ شاباً حوالى العشرين ، يجوس خلال الأفكار . والناس ويحيا شريداً يتنقل من حرفة إلى حرفة لسد الرمق .

وفى هذا الضغط أو الكبت . عقب مقتل القيصر ، تبخر الصراع بين دعاة الصقلبية ، أى الشرق ، وبين دعاة الحضارة الغربية . وأخذ مكانه صراع أعمق وأبعد بين الرأسمالية والاشتراكية .

وكانت الرأسمالية بازغة فى روسيا . قد جلبها المستعمرون ، أى المستغلون ، من الغربيين الذى ألفوا الشركات لإيجاد المصانع . واشترك معهم الأثرياء من الروس ، الذين آمنوا بالحضارة الغربية والذين وجدوا الظروف ملائمة لاستغلال الثروة المادية ، والبشرية الروسية ، وذلك عقب إلغاء النظام الإقطاعى السابق وتحرير عبيد الأرض ، أى العمال ، الذين لم يكن يسمح لهم من قبل بترك الأرض إلا بإذن المالكين .

واتحد الاشتراكيون والأحرار فى التوجيه السياسى للشعب الروسى ، وحدثت ثورة عام ١٩٠٥ التى كانت فى صميمها مظاهرة أحالها طغيان الحكومة القيصرية إلى مجزرة قتل فيها أكثر من خمسمائة ، غير آلاف الجرحى . وكان يقودها إلى الفشل الكاهن « جابون » الذى دعا المتظاهرين إلى ألا يحملوا السلاح ضد « الأب الصغير » أى القيصر .

ولكن الأب الصغير كان يحمل السلاح هو وآلاف من جنوده . استعملوا جميعهم السلاح لقتل الجماهير المتظاهرة والتى لم تكن تطالب من القيصر أكثر من حكومة دستورية عادلة توفر الخبز والعمل لأبناء الشعب الجائعين .

وهنا نجد مكسيم جوركى لأول مرة يشترك فى هذه الثورة ، ويتعلم منها . وكان أول ما تعلم من دروسها أن عرش القيصرية لن يهدمه

الأحرار ، وأن أحزاب الأحرار لم يعد لها مكان فى القرن العشرين . وأن الاشتراكية وحدها تتحمل عبء التغيير المنتظر بإيجاد جمهورية بدلا من القيصرية .

وقصته العظيمة « الأم » التى ظهرت فى عام ١٩٠٧ هى التعليق على ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . كما هى إرشاد وإلهام للشباب الثائرين فى روسيا حتى لا يقنطوا من النجاح المنشود فى ثورات أخرى .

* * *

ذكرت الصراع بين دعاة الصقلبية الشرقيين ، وبين دعاة الحضارة العصرية الغربيين . . .

هذا الصراع تغير ، أو تطور . إلى حركتين جديدتين فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٤ . فإن الاتجاه الاشتراكى بين المفكرين والأدباء حملهم على الانحياز للإنسانية ضد الوطنية .

« نحن للعالم ولسنا لروسيا . لسنا وطنيين . نحن عالميون » .

هذا كان موقفهم . وكان منطقهم هنا أنه ما دمنا نعمل للاشتراكية فيجب ألا تكون هناك فوارق فى الوطن ، وإنما نهدف إلى خدمة الإنسان مهما يكن ، سواء أكان روسيًّا أم مصريًّا أم صينيًّا أم إنجليزيًّا . فى حين كان خصومهم يقولون روسيا أولا . نحن وطنيون .

وجاءت الحرب فى عام ١٩١٤ ، فتغلب بالطبع الوطنيون . ولكن لفترة قصيرة ، واستحالت الوطنية إلى نزعة حربية عنيفة ضد ألمانيا . وهذا ما كان ينتظر .

ولكن جوركى بقى على ما كان عليه داعية للسلم حتى مدة الحرب . داعية للإنسان ، الإنسان العالمى .

* * *

عاش جوركى أربعين سنة وهو يكافح فى صدره مرض الدرن ؛ أى السل . وأمضى معظم حياته فى جنوب إيطاليا ابتغاء الشمس والدفء ولم يستسلم لهذا المرض ، ولم ينم له . بل كان يعمل ، ويخرج فى الهواء ويمرن عضلاته . لأنه كان يحس أنه فى سباق مع الموت . وعاش ٦٨ سنة كان يمكن بالطبع أن تكون ٨٠ أو ٩٠ لولا هذا المرض ، ولولا ذلك الكفاح الآخر الذى كافح به الفقر والحرمان فى صباه كله وبعض شبابه .

لقد نشأ جوركى فى أسرة من الفقراء الذين جر عليهم الفقر طائفة غير صغيرة من الكوارث . فرأى بعينيه الإجرام فى أعضاء أسرته . كما أن الجوع قد حمله على أن يحترف أوضع الحرف . بل كان احترافه لهذه الحرف أقرب إلى التشريد منه إلى الاحتراف . فعمل خبازاً ، وبائعاً جوالا ، وجامعاً للخرق ، وبستانياً ، وبائعاً للأيقونات المقدسة . بل إنه احتاج أن يصيد العصافير كى يأكلها ويشبع بها جوعه .

وليس غريباً علينا أن نفهم أن قصته « من الأعماق السفلى » تحتوى أشخاصاً يشهدون أو يطابقون أولئك الذين خالطهم فى صباه وشبابه . بل ليس غريباً علينا أن نفهم أنه قد ألهم الواقعية فى الأدب لأن مارآه من واقع حياة هؤلاء الناس قد ألهمه هذا المذهب .

إنما الغريب أن نعرف أنه تغلب على هذا الوسط السيئ فلم يقتد بأحد من أولئك المجرمين ، بل رفع نفسه فوق وسطه . فلم يتعود شرب الخمور ، ولم يقنع بالبطالة والتشرد ، ولم يقع فى جريمة أو فساد آخر . وإنما خرج من هذا الظلام ينشد النور فى درس المذاهب واقتناء الكتب والتفكير فى الإنسانية ، وترقية شخصية . تغلب على وسطه ، وتغلب على هذا الميكروب الذى كان يأكل رئتيه مدة أربعين سنة .

ونحن هنا إزاء رجل نجح فى الأدب وأخرج الكتب العظيمة .

ولكنه قبل أن يخرج كتاباً من مطبعة أخرج لنا حياته التى نجح فى تأليفها . وحياته هذه هى خير مؤلفاته . وهى التى تلهمنا أكثر من أى كتاب من كتبه .

ولكن ما هو الحافز فى هذه الحياة ؟

* * *

أعتقد أن أعظم نعمة أنعمت بها الأقدار على مكسيم جوركى أنه منذ بداية شبابه ، كما يخبرنا هو عن ذلك فى ترجمة حياته ، عرف المذهب الاشتراكى . وكان هذا المذهب جديراً بأن يلصق بقلبه أكثر مما يلصق بقلب أى إنسان آخر ، لأنه رأى بعينيه ، واختبر بأسلوب عيشه فى الفقر والتشريد والصعلكة ، أكثر مما كان يرى ويختبر غيره . فكان للاشتراكية الوقع العميق فى نفسه .

وهذا الوقع هو الذى نقله من الواقعية إلى الرومانسية .

لقد اكتسب الواقعية مما رأى واختبر . فصار ينقل إلينا فى أدبه صوراً من الفقر والحرمان ، وما يجران على الفقير المحروم من الانهيار النفسى والتفكك الأخلاقى فى بعض الأحيان . كما يبعثان فى أحيان أخرى قوة جديدة للتغلب والسيطرة على الوسط .

ولكن هذه الواقعية التى اكتسبها من واقع حياته الأولى استحالت عنده بالمذهب الاشتراكى إلى رومانسية علمية . فصار يرسم لنا الأهداف الجديدة للارتقاء الشخصى ، وأيضاً للارتقاء الشعبى عن طريق العلم الذى يخدم الإنسان ويسخر الطبيعة ويغيرها لتوفير الرفاهية للجميع .

إن بعض الناس يؤمنون بالاشتراكية لأنها عدل ورحمة . ولكن المفكر العلمى يؤمن بها لأنها علم تتفتح لنا أبوابه فى النظام الاشتراكى

فقط حين تنطلق الطاقات لجميع أبناء الشعب للإنتاج والاختراع والاكتشاف والثراء والرخاء .

وهذه هى اشتراكية جوركى . وهذا الأمل فى تحقيقها هو الذى يجعله يحلم بالسعادة ، ويعود رومانسيًّا يرسم لنا ما سوف نستمتع به بعد تعميم هذا النظام للعالم .

* * *

قبل ثورة عام ١٩٠٥ الفاشلة كان جوركى يؤلف القصص القصيرة التى يعالج فيها أعماق الفقر والبؤس ويبعث فيها بخمائر الثورة . وكان موقفه الاجتماعى من مؤلفاته الفنية هو أن الفقر ساحق عام ، ولكننا نستطيع أن نلغيه بالعلم والاشتراكية . وأن الفقير زرى فى معظم أحواله لأنه يحيا فى وسط سيئ يحمله على الإجرام والرذيلة ، بل يحمله على أن يفر من الجوع والبؤس بالخمر .

ثم رأى بعد الثورة الفاشلة فى عام ١٩٠٥ أن هناك يأساً عامًّا ، وأن السلطات الروسية قد استأنفت قسوتها ووحشيتها ، فألّف « الأم » .

ومغزى هذه القصة أن الثائرين يجب ألا ييأسوا . وهو يشرح ، كأنه الدليل المرشد ، كيف يجب أن يستعد المتآمرون ، وكيف يعرفون الخائن فيتقونه ، وكيف يحذرون الجواسيس . وقصة « الأم » من هذه الوجهة ليست قصة فقط ، إذ هى قبل كل شىء دليل يوضح أساليب الثورة . وهذا هو المغزى العام منها .

ولكن هناك مغزى آخر يمكن أن نسميه المغزى الشخصى من الثورة . هو أن العامل الفقير ، عندما ييأس يفسد . ويهرب من الحياة بالخمر والرذيلة . ولكنه عندما ينهض ، ويحس أنه رجل له آمال فى الارتقاء العام وتغيير النظم الاستبدادية ، عند ذلك يعمد إلى نفسه هو فيرقى

شخصيته ويغير أخلاقه . فيشرع فى التعلم ، أو ما نسميه « التثقيف الذاتى » فما هو أن تمضى عليه سنوات قليلة حتى يكون قد انتقل من العامية المهنية إلى الثقافة العالية . وخاصة إذا كانت هذه الثورة التى ينشدها هى النظام الاشتراكى .

* * *

كما أن هناك « عقداً » أو « مركبات » فى الأخلاق تعين لنا سلوكنا وأهدافنا . كذلك نحن فى دراستنا وثقافتنا نجد أننا فى أسر هذه العقد أو المركبات الذهنية النفسية التى تكسبنا الحوافز وتبعث فينا النشاط للدرس ، وتفتأ تملأنا اهتمامات تكاد تكون هموماً مؤلمة ، لا نرتاح إلا بعد أن نحلها وننفرج من أسرها .

وهنا كلمة عن شخصى أنا من حيث اختباراتى للشهوة الثقافية والإرشاد للعلوم والآداب . فقد وجدت عقدتين فى حياتى كان لهما كل الأثر فى توجيه أبحاثى ودراساتى .

العقدة الأولى هى نظرية التطور التى طرأت على ولما أبلغ السابعة عشرة من عمرى .

وكانت مجلة المقتطف تسميها نظرية النشوء والارتقاء . وما هو أن عثرت عليها حتى وجدتنى فى عاصفة من التفكير والتردد .

هذه النظرية ، هذه العقدة ، جعلتنى أبحث الأديان ، وأدرس البيولوجية ، أى علم الحياة ، وأقتنى عشرات بل مئات الكتب عن الإنسان البدائى ونشأة الحضارات ، وأسلوب الحياة عند المتوحشين فى أيامنا ، وثورة العلم على التقاليد فى النهضة الأوربية ، ومعانى التطور الاجتماعى ، وتاريخ الأرض ، وأصل الكون ، ومستقبل الإنسان ، وأخيراً السيكلوجية ، أى علم النفس .

كل هذه الدراسات كانت ، ولا تزال عندى ، تعود إلى العقدة الأولى التى غرستها فى نفسى نظرية التطور . والمهم الذى يجب أن أذكره أنى مازلت فى أسر هذه العقدة . وأن استطلاعاتى الجديدة للثقافة تعود إلى جذورها الأولى حين كانت سنى ١٧ سنة . وهى الأصل فى اتجاهاتى العلمية .

والعقدة الثانية هى الاشتراكية التى طرأت علىّ وأنا حوالى العشرين فى لندن حين التحقت عضواً بالجمعية الفابية ؛ فقد حفزنى هذا المذهب على بحوث واستطلاعات اجتماعية جديدة .

ما هى علة الفقر ؟

ما هو معنى الاستعمار ؟

هل البغاء عند محترفاته استهتار أم فقر ؟

هل الجرائم تعود إلى ما يسميه بعضنا « سوء الأخلاق » أم إلى الفقر ؟

بل كذلك المرض ، يعود إلى عادات سيئة أم إلى قلة التغذية ؟

إلخ . . إلخ . . ودفعتنى هذه البحوث إلى أن أدرس العناصر التى يتألف منها الغذاء الحسن ، بل إلى أن أدرس طرق الزراعة العلمية والتقليدية ، وإلى أن أدرس مشكلة السكان . إلخ .

ولكن نظرية التطور ، ثم نظرية الاشتراكية ، زيادة على ماحملتنى كل منهما على الدرس ، حملتنى أيضاً على الآمال البعيدة ، بل أحياناً المسرفة ، فى مستقبل الإنسان القريب بالاشتراكية .

والذى أفهمه من حياة جوركى أنه انبعث بدراسة العلم والاشتراكية إلى الآمال الإنسانية العظيمة التى نصفها بأنها رومانسية .

إننا فى حديثنا العام نفرض على الدوام أن المذهب الاشتراكى مذهب

إنسانى بار ، وأن الاشتراكيين يضحون ولا يكسبون منه شيئاً . ولكنى باختباراتى أستطيع أن أكذب هذا الفرض ، وأنا أقول إنى اكتسبت من إيمانى بالاشتراكية هذه الدراسات والاستطلاعات التى لاتنقطع ، والتى أحس منها أن ذهنى حىّ ، وأنه فى شباب ، ينمو وينضج ، وأنى أتفاءل فى حياتى بالمستقبل ، ولا أخشاه ، ولا أتشاءم .

* * *

ولكننا نجد فى جوركى شذوذاً ، أو فذاذة عجيبة فيما يختص بتأثير الوسط على الأخلاق . فإن الوسط الذى نشأ فيه . وسط الأسرة من الجدود والأعمام والأخوال ، هذا الوسط كان هاوية من الخسة والشراسة والاجرام والرذيلة . وأيما مفكر قد تشبع من الثقافة الاجتماعية ، يقرأ عن هؤلاء الأشخاص الذين نشأ بينهم جوركى ، لا يتمالك الإحساس بأنه ، أى هذا الوسط ، كان جديراً بأن يخلق منه أعظم مجرم فى العالم .

ولكن جوركى كذب هذا المنطق ونشأ أعظم إنسان فى العالم .

وصحيح أنه كانت له فى هذا الوسط جدة بارة أحبته وخدمته . ولكن هل يكفى للنشأة الحميدة أن يكون هناك شخص واحد فاضل بين عشرة من الأرزال ؟

وإذا لم يكن الشأن كذلك فإلام تعزو هذه النشأة العصامية التى اتسمت بها حياة جوركى ؟

كان جوركى عصاميًّا ، ولكن ليس فى جمع المال كما هو المعنى العرفى ، وإنما فى تأليف شخصيته وتربية إنسانيته . وليس عندنا من تفسير لهذه الظاهرة الفذة سوى أنه تقلب كثيراً فى الحرف والمهن ، ورأى وقارن بين الناس . واستعمل ذكاءه فى الفهم والمقارنة وعرف فى غضون ذلك المذهب الا شتراكى . واستطاع أن يصوغ حياته وفق خياله . وخياله

هو الاشتراكية .

وهنا العبرة لكل شاب ، بل لكل فتاة . فإنى لا أكاد أتخيل وسطاً عائلياً أسوأ من الوسط الذى نشأ فيه جوركى . ومع ذلك تغلب على هذا الوسط كما تغلب على مرضه ، السل ، مدة أربعين سنة . وامتلأ آمالا فى المستقبل الاشتراكى .

* * *

ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر تأثير الوسط أو قيمته فى جوركى ، أو بالأحرى فى مؤلفاته . ونحتاج هنا إلى المقارنة بين تولستوى وجوركى .

فإن الذى لاشك فيه أن نشأة المؤلف ، ووسطه العائلى والاجتماعى ، يؤثران على موقفه من الدنيا وآرائه وفلسفته واتجاهاته . بل كذلك على أسلوب تعبيره وموضوع تفكيره . ولا يكاد أحدنا يتغير ويخالف هذه القاعدة إلا إذا عاش فى وسط اجتماعى آخر يزعزع عاداته وعقائده السابقة .

فقد نشأ تولستوى على القمة ، فى أسرة يرأسها كونت .

ونشأ جوركى فى الهوة ، فى أسرة أكثر أفرادها من المجرمين .

ولذلك نجد أن تولستوى ، على الرغم من يقظته وبغضه لمعيشة النبلاء ممن يضارعونه فى الجاه والثراء ، لا يزال يحس إحساسهم . فهو لا يؤمن إيماناً كاملا بالاشتراكية ، بل لا يؤمن بالحضارة الصناعية . وكل ما نجد فيه أنه إقطاعى رحيم بالفقراء الذين قلما يكتب عنهم ، لأن أبطاله جميعهم تقريباً من النبلاء أمثاله أو من المتيسرين . والرحمة المسيحية عند علاج المساوئ الاجتماعية . وهو يؤمن بالدين ، وإن كان يجحد الكنيسة .

العدل عند تولستوى هو الرحمة . وألا نقاوم الشر مقاومة إيجابية .

ولكن العدل عند جوركى هو الحق . ومذهبه مكافحة الشر بالسيف والنار .

وأبطال جوركى هم أولئك الذين أسقطهم الفقر على الحضيض . ولكنه يعمل على رفعهم بإيقاظهم وإيجاد الوعى الإنسانى فى قلوبهم .

تولستوى لم يدع إلى الثورة ، ولكنه أوجد السخط الذى هيأ لها .

وجوركى دعا إلى الثورة. واشترك بنفسه فى ثورةعام ١٩٠٥ . ثم عاد إلى روسيا بعد ثورة عام ١٩١٧ ؛ وخدمها فى أمانة وحماسة إلى أن مات فى عام ١٩٣٦ .

* * *

إن التصادم عند جوركى ، بين واقع حياته وأمانى نفسه . هو الذى ينعكس أثره فى أدبه . حين يصف لنا رجال قصصه فيصف الإنسان بأنه بليد وخسيس وجاهل وراكد وأرعن ومغفل .

هذه هى الصفات التى رآها فى الناس ، فى الواقع .

ولكنه يعود فيثب من الواقعية إلى الرومانسية ، فيقول لنا على لسان إبليس فى قصة « الأعماق السفلى » :

« الإنسان . ما أعظمها كلمة »

أجل إن الإنسان سينتصر على بلادته وركوده .

واقعية جوركى جاءت من حياته السفلى مع أخواله وأعمامه .

رومانسيته جاءت من آماله ، بعد أن عرف الثائرين الاشتراكيين ، وبعد أن اشترك معهم بعقله وجهده .

كان يعيش فى الظلام الرأسمالى ويؤمل فى النور الاشتراكى .

كان يعيش فى الرق والفاقة ، ويفكر فى الحرية والرفاهية .

إن القبح فى الواقع : جعله : فى الخيال . يفكر فى الجمال .

وكان اليأس يبعث فيه الأمل .

كان يحلم وهو فى عبودية المجتمع الروسى أيام القيصر فى سيادة الإنسان على الطبيعة وعلى الآلة . وفى قدرة الإنسان ، بعقله ، على محو الخرافات .

* * *

يجب ألا نتعب من تكرار القول بأن الأديب يجب أن يستنبط من شخصه « نفسًا أدبية » قبل أن يؤلف فى الأدب .

يجب أن يكون رجلا مكافحًا وإنسانًا اشتراكيًّا .

فأين هى عوامل الرجولة والإنسانية فى جوركى ؟

لقد صار يتيما وهو فى السنة السابعة من عمره .

وصار عاملا يكسب عيشه وهو فى التاسعة من عمره .

وبعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل ؛ وفى حيرة وتنقل من عمل إلى آخر ، وفق اختياره ؟

هذه الأعمال كانت بعد ذلك المواد الخامة التى صنع منها قصصه .

وفيما بين عامى ١٩٠٤ و ١٩١٣ أسس واشترك فى دار نشر تدعى « زنانيا » لنشر الأدب الذى يحمل دلالة اجتماعية . وبقى طيلة حياته بعد ذلك يفهم من الأدب أنه وسيلة لتغيير المجتمعات والناس .

وبقى أربعين سنة يكافح مرض السل ( الدرن ) الرئوى .

وفى سنة ١٩٠٨ وصف الشعب فى كتابه « الاعتراف » بأنه : « خالق الآلهة . خالق المعجزات » . ويقول فيه أيضاً : « إن قوة

الشعب ، حين يسترشد بالإرادة الذكية . لا تعرف حدوداً تعوقها عن التقدم »

هذا الأمل العظيم إنما أحس به بعد الكوارث العظمى التى جعلته يتألم من الفقر فى صباه ، ومن المرض ، أربعين سنة ، حتى حاول الانتحار والفرار من الدنيا . ولكنه خرج من هذا اليأس إلى الأمل الواسع ، فأصبح أعظم مرشد للناس يرشدهم إلى طريق الخير الاشتراكى .

وما زلنا نحن ، بعد وفاته ، نسترشد به ونبنى ، أو نحاول أن نبنى حياتنا على غراره .

* * *

ولد جوركى فى عام ١٨٦٨ ومات فى عام ١٩٣٦ .

ونفهم من هذين التاريخين أنه أمضى ٣٢ سنة فى القرن التاسع عشر و٣٦ سنة فى القرن العشرين . ونفهم أيضاً أنه ألف ، قبل الثورة الروسية ، فى عام ١٩١٧ ، وبعدها . فكان من دعاتها المكافحين المضطهدين ، ثم كان بعد ذلك من أبنائها الموالين .

كان مولده ، فيما كنا نسميه قبل الحرب « نجنى نوفجورود » ثم صارت بعد الثورة تسمى باسمه « جوركى » على نهر الفولجا الذى نجد ذكره يتكرر فى مؤلفاته .

وكانت روسيا قد ألغت الرق الإقطاعى ، ولكن ذكراه كانت لا تزال عالقة بالأذهان . ورأى جوركى فى صباه ناساً كانوا أرقاء ، لهم أخلاق إقطاعية فى الدرجات السفلى . ولكنه رأى أيضاً بزوغ الحركة الصناعية والرواج التجارى فى المدن حيث المصانع والمتاجر .

كانت روسيا فى فترة الانتقال تصطدم فيها الأخلاق الإقطاعية التى تعتمد على الإيمان والتواكل والمحافظة التى تقارب الجمود ، والأخلاق الجديدة ، أخلاق المتجر والمصنع .

وكلنا ، نحن أبناء القاهرة الذين أمضوا بعض حياتهم فى الريف ، نعرف الفرق بين الفلاح ، هذا الإنسان القديم ، الذى يخرج علينا بأخلاق الفراعنة ، والذى تغلبت عليه الأخلاق الإقطاعية ، ثم هذا الإنسان الجديد ، العامل فى المصنع أو المتجر ، بل أيضاً صاحب المصنع أو صاحب المتجر . هؤلاء جميعاً قد تغلبت عليهم الأخلاق التجارية الصناعية . وهم يعيشون فى المدينة الصناعية المنبهة بينما الفلاحون يعيشون فى القرى النائمة الغافلة .

رأى جوركى القرية التى لم تكد تتخلص من أخلاقها الإقطاعية ، كما رأى المدينة الصناعية . ومع أنه عرف أن مكانه هو المدينة ، هو الحضارة ، هو الصناعة ، هو استقلال الشخصية ، هو التعقل والتساؤل بدلا من الإيمان والتسليم ، فإنه مع ذلك وجد فى المدينة ما يكره وأعظم ما كان يكره هو المتاجر والعقلية التجارية .

كان ظهور المصانع نتيجة لإلغاء الإقطاع . وكذلك كان ظهور المتاجر .

وهنا تثب إلى أذهاننا كلمة عصامى ، أو الرجل الذى يصنع نفسه ، ينشأ فقيراً ، ثم لا يزال يجد حتى يجمع الثروة الطائلة . ثم يحصل على لقب ويشيد كنيسة فى بلدته .

هو رجل متحرر من قيود الإقطاع ، يجد جيوشاً من العمال يختار منهم ويعين الأجور لعملهم . ويجمع الثروة بعرقهم وجهدهم .

ونحن نعرف العصاميين فى بلادنا ، ينشأ أحدهم عاملا يقطع الحجر للبناء أو ينقله إلى القاهرة . ثم لا يزال يقتر على نفسه حتى يجمع ثمن عربة يجرها حمار أو جواد للنقل . ثم يسرف فى التقتير حتى يشترى عربة نقل كبيرة . ولا تمضى عليه السنوات القليلة حتى يكون مقاولا

يبنى العمارات .

والثروة الضخمة تأتى إليه عندئذ بلا عائق . لأنه يستطيع أن يقتطع من الأجور مقداراً يدخره . ثم يعود « رأس مال »

قبل أكثر من خمسين سنة قرأت كتاباً ترجمه « يعقوب صروف » مؤسس مجلة « المقتطف » عن صمويل سميلز . وكان عنوانه « سر النجاح » .

وفى « سر النجاح » هذا قصص متوالية لنعصاميين الإنجليز الذين نهضوا من الفقر إلى الثراء . كانوا عمالا فأصبحوا سادة ، يملكون المتاجر أو المصانع ويستخدمون العمال . قصص نهوض رأس المال فى القرن التاسع عشر .

ولكن صمويل سميلز لم يسأل ، وهو يروى تواريخهم ، كيف جمعوا هذه الثروات ؟ وهل كانوا يجمعونها لو أنهم كانوا يؤدون الأجور الحقة لعمالهم . كما لم يسأل يعقوب صروف هذين السؤالين عندما ترجم الكتاب .

ويشير جوركى إلى هذا الكتاب بالذات ويسخر به . ويعلن كراهته للتاجر الذى أثرى بإذلال العمال وحرمانهم ما كانوا فى حاجة إليه من طعام أو مسكن أو كساء .

وفى جميع مؤلفاته تقريباً نجد هذه الكراهة للتاجر والصانع ، أى للرأسمالى ، صاحب المتجر أو صاحب المصنع الذى يثرى بما يكسبه من عرق العمال .

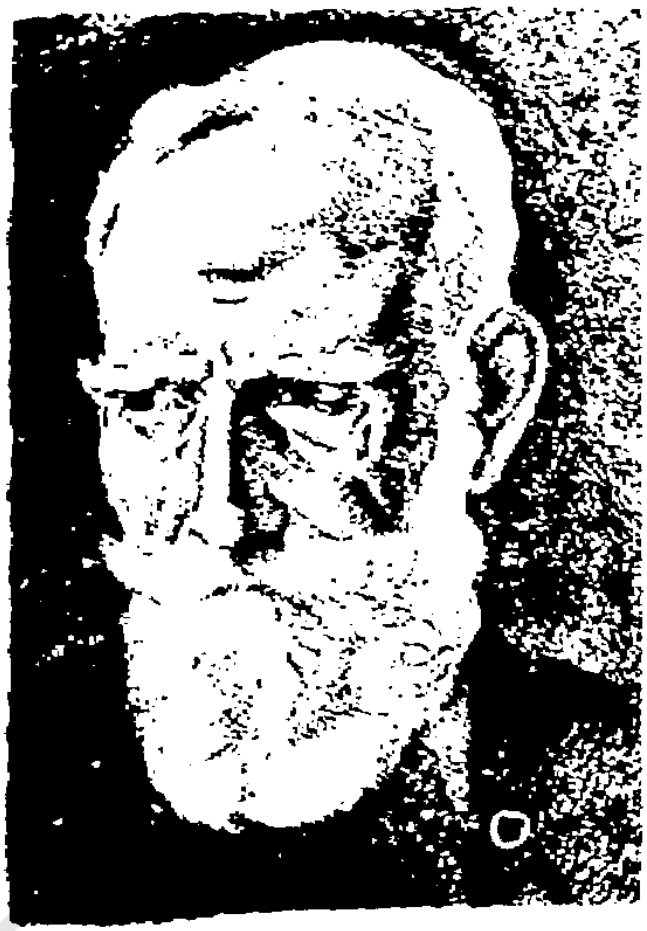

# شو
# رفيق حياتى

أحسن ما اقتنيت فى حياتى هو ذكرى برناردشو . فقد لقيته حين كانت لحيته لا تزال صهباء ، وتحدثت إليه وسمعت خطبه وقرأت مؤلفاته . وإنى لأحس إحساس أولئك الذين نغبطهم ممن عاصروا أفلاطون أو أرسطوطاليس ، واستمتعوا بحديثهما ، وقرءوا وناقشوا مؤلفاتهما ، ورأوا ضمائرهما الذهنية تتفشى فى حياتهم .

ولقد عرفته فى عام ١٩٠٩ ورافقته إلى سنيه الأخيرة إلى أن مات فى الرابعة والتسعين ، وهى أربع وتسعون سنة من الخلود . ولقد درست فلسفته فكان لى منها توجيه وإرشاد .

ولكنى لم أنتفع بمؤلفاته قدر ما انتفعت بحياته وفلسفته التى — إلى مدى بعيد — تنبع من حياته أكثر مما تتألف من أفكاره . أو أن حياته

قد اندمغت فى أفكاره فعاش عيشًا فلسفيًّا. ولست أنكر النشوة الذهنية التى كنت أجدها عندما أقرأ له مؤلفاً جديداً ، ولكن الإيحاء الدائم والتنبيه المزعج لأسلوب عيشى واختيار أهدافى ، إنما كانا ينبعان من حياته أكثر من مؤلفاته .

فقد تناول برناردشو حياته كما لو كانت مادة خامة ، وجعل يعتملها ويصوغها حتى أخرجها تمثالا جميلا .

وقد ألف نحو أربعين كتاباً ودرامة ، ولكن أعظم مؤلفاته هو حياته .

وإنى ألتفت كثيراً إلى المؤلفين من هذه الناحية ، أى كيف ألفوا حياتهم وصاغوها وجعلوا منها بناء جميلا ، كما لو كانوا يرسمون صورة أو ينحتون تمثالا أو يصفون بطلا فى قصة أو درامة .

وإنى لأذكر هنا روسو ، وجيته ، وغاندى ، وڤولتير ، فإن كلا من هؤلاء قد ألفوا الكتب العظيمة ، ولكن أعظم ما ألفوه هو حياتهم .

ولو أنه طلب إلىّ أن أؤلف فى ترجمة برناردشو وفلسفته كتاباً يحتوى عشرة مجلدات لوجدت هذا الواجب سهلا أنهض به راضياً فى شهور . ولكنى أجد صعوبة كبرى فى كتابة هذا الفصل عنه ، وهى صعوبة الإيجاز والضغط والاختيار .

ويجب أن أبدأ بكتابه الأكبر وهو حياته . فإنه اتبع أسلوباً من العيش يتفق وكلمته :

« وإنما يكون الإنسان فاضلا إذا أعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه » .

ومعنى هذا أن المجتمع قد كسب بحياته فضائل وأخلاقاً وعلماً وأدباً وحكمة .

وقد نظر إلى جسمه كأنه تحفة غالية . وفهم من الطهارة أكثر مما نفهم ، فجعلها فى أمعائه : إذ رفض أن يجعل جسمه جيفة لجثث الحيوانات . والتزم الطعام النباتى : وعاش ٩٤ عاماً سليماً ، فبرهن على أنه كان بصيراً بالغذاء الملائم للتعمير والصحة .

وقد كان التعمير بعض أهدافه ، كما كان بعض فلسفته . فإنه كان يقول إن أعمارنا قصيرة لا تتسع للدرس والعمل والاستمتاع ، ويجب أن نعيش نحو ثلثمائة سنة على سبيل العلاج الوقتى لمشكلاتنا الاجتماعية .

أما الهدف الأخير فيجب ألا تقل أعمارنا فيه عن ألوف السنين ، لأنه إذا طالت أعمارنا اهتممنا بالدنيا وأصلحناها . أما مادامت أعمارنا قصيرة فإننا نخطف اللذة والمتعة ، ولا نبالى إصلاح هذه الدنيا ، لأننا زائلون منها قريباً .

وقد أحب واشتعل فى نفسه لهب العشق فلم يطفئه ، ولكنه أيضاً لم يؤججه حتى لا يحترق به . فقد عرف المثلة « إلين ترى » ، وكانت الروعة فى الجمال والحكمة فى العيش . وكانت تجمع إلى هذا ذكاء الإحساس . فكان يذهب إليها كل مساء ويراها وهى تمثل ، فإذا كان الصباح الثانى كتب إليها خطاباً يتسامى فيه بحبه ويبسط لها أعاجيب من إحساسه وذكائه فى تفطن وحماسة .

ولم يقابل أحدهما الآخر . وقد طبعت مراسلاتهما بعد ذلك ، وهى جديرة بأن تكون دليلا للمحبين الذين يرتفعون بالحب إلى الثلث الأعلى من الجسم البشرى .

ولم يحظ بتعليم جامعى ولا مدرسى ، ولكن أوربا الفهيمة عرفت فيه بعد ذلك أسمى نفس بشرية تعيش فى عصرنا . ذلك أنه جعل سنى عمره الطويل جميعها سنى دراسة ، ومؤلفاته هى مشكلات اجتماعية قد سلط

عليها جهده وذكاءه فدرسها وأخرجها فى درامة كوميدية فنية ، نقرأها أو نراها على المسرح فنحس بالضمير الواخذ والعامل الحافز حتى حين نضحك من أشخاصها ووقائعها .

وقد كان المسرح قبله ميداناً للشخصيات ، فأحاله إلى ميدان للأفكار . وكان ميداناً للتبذخ بوصف الحياة فى القصور أو صلصلة السيوف أو الخيانة الزوجية الرخيصة ، بإيجاد الشخص الثالث بين الزوجين ، فجعله مكاناً للتفطن فى معانى الحب والبطولة ، ومعايش الفقراء والمبئوسين ، ومعالجة الطموح الدينى ، وتطور الإنسان بعد آلاف السنين .

وكل هذه المشكلات كانت مشكلاته الخاصة التى درسها لأنها بعض تربيته .

عرف برناردشو الفقر والثراء ، وعرف الكفاح فى السياسة والفلسفة والعلم والأدب ، وصرخ صرخة ڤولتير فى مأساة دنشواى ، وكشف عن لؤم السياسة الإمبراطورية البريطانية فى الحرب الكبرى الأولى . ونال جائزة نوبل فسلمها لجمعية تنمية العلاقات بين نروج وبريطانيا . ودفع ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال . ولم يعرف قط التدخين ، وكان يقاطع الخمر إلى ما قبل وفاته بنحو عشر سنوات . وطاف حول الدنيا ، وصادق العظيمين سدنى ويب وزوجته . وكانا يرتفعان إلى مستواه فى روح البر بالدنيا ، وكانا يمتازان بالدراسة الاقتصادية .

* * *

قبل أن ألتقى برنارد شو وجهاً لوجه كنت قد قرأت بعض مؤلفاته ، فوجدت القوة التحريرية فيها تعادل أو تزيد على ما لقيته فى ڤولتير ونيتشه .

ولما التقيت به فى الجمعية الفابية فى لندن أحسست كأنى إزاء أجمل

رجل فى العالم . فقد كان مديد القامة أحمر شعر اللحية والرأس . وكان فى نغمات صوته صحلة خفيفة محببة . وكانت كلماته للساسة الإنجليز بشأن دنشواى قد جعلتنى أحس كأنه واحد منا نحن المظلومين المضروبين المشنوقين لأنه بكى كما بكينا . ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها إلى يوم وفاته .

بل إن حبى له قد حملنى إلى أن أقتدى به فى التزام الطعام النباتى . وبقيت على ذلك سنة كدت أموت فى نهايتها من الهزال . ولم يكن هزالى بسبب المذهب النباتى وإنما كان لجهلى قيمة البيض واللبن عند النباتيين .

كان برنارد شو يعد نفسه صحفياً قبل كل شىء ، وقد رأينا نحن فيه الفيلسوف العميق والمؤلف المسرحى المبدع والأديب الرصين ، بل أحياناً العالم الذى يستطيع أن يجادل العلميين فى أخص نظرياتهم . ولكنه كان يجمل كل هذه الكفاءات بقوله إنها « صحفية » من حيث إنها تتصل بالمشكلات العصرية . والصحفى العالى يجب أن يرتفع فى تفسير هذه المشكلات ومعها إلى المستوى الفلسفى . وأن يكون العلم والأدب بعض شئونه الدراسية .

ولد برناردشو فى عام ١٨٥٦ أى قبل افتتاح قناة السويس بثلاث عشرة سنة . وكانت سنه ٢٦ سنة حين وطئت أقدام الإنجليز أرض وطننا ولست أذكر هذين التاريخين اعتباطاً ، ذلك أن الحادث الأول قد أبرز مصر فى وجدان الأوربيين .

وأما الحادث الثانى فقد أبرز للمفكرين من الإنجليز رجال حزب الأحرار ودناءتهم ورياءهم بشأن الحرية التى داسوها فى مصر ونفوا زعيمها العظيم إلى سيلان .

وكان من هذا أن فكر بعض الأحرار فى ترك حزب الأحرار وإنشاء الجمعية الفابية لنشر الدعوة الاشتراكية . وكانت هذه الجمعية التى التحقت أنا بها . والتى أحالتنى من شرقى جاف إلى أوربى متمدن ، كانت السبب الأول لإيجاد حزب العمال الذى أسندت إليه رياسة الحكومة البريطانية أكثر من مرة . وكان برنارد شو أحد مؤسسيها ، وأكبر داعية لنشر الاشتراكية الفابية . أى التدريجية ، التى تتسلل وتعالج دون أن تثور وتهدم .

عاش برناردشو طوال عمره وهو يدعو إلى الاشتراكية ، وقد اتخذ الطرف اليسارى منها هذه السنين الأخيرة من عمره . ولكننا على الرغم من أننا نجد أن نظرياته ثورية فإن خططه كانت عملية ؛ وهو لذلك يعنى أكبر العناية بالبحث فى مسائل المجالس البلدية التى يجد فيها بؤرة العمل الاشتراكى .

وهو أفلاطونى الذهن حين يتحدث عن العمال ، إذ يستصغر شأنهم ويقول بإيجاد صفوة معينة لمعالجة السياسة . وكأنه هنا فاشى يتحدث ، كما كان يتحدث موسوليني . ولكن فترات اليأس هذه قليلة عنده ، وسرعان ما كان يفيق منها إلى الاعتماد على الشعب .

وهو بالطبع عدو الاستعمار وعدو الاستغلال ، ويقول بالتأميم . ومؤلفاته ، رسائل وكتباً عن الاشتراكية ، عديدة وهى تتسم جميعها بأنها شعبية وإيضاحية .

واختصاص برنارد شو الأدبى هو التأليف المسرحى . وهو يضع لكل درامة أو كوميدية مقدمة قد تزيد أحياناً على مائة صفحة ، يوضح فيها وجهته الفلسفية التى حملته على تأليف هذه المسرحية . بل هو أحياناً يزيد على المقدمة بملحق يبرر أو يشرح فيه بعض ما احتاج إلى إيجازه

على لسان أحد الممثلين . ومن هنا نقرأ الدرامة أو الكوميدية كأنها كتاب مستقل زيادة على قيمتها المسرحية .

وأسلوب برناردشو هو الأسلوب العصرى ، أى الأسلوب الديمقراطى . فهو يكتب للشعب بلغة الشعب ، وهو لا يعرف التبذخ أو التظرف فضلا عن التبهرج . ونحن نقرأه كما لو كنا نقرأ مؤلفاً فى الدين أو الفلسفة أو التاريخ . ومرجعه ، أى مرد جذوره فى المسرح ، هو « هنريك إبسن » الذى جعل الدرامة الأوربية اجتماعية . وقد ألف برنارد شو فى بداية حياته الأدبية كتباً فى الدفاع عن إبسن ، ولكن إبسن كان فناناً مسرحياً قبل أن يكون باحثاً اجتماعياً .

أما برنارد شو فعكس ذلك إذ هو باحث اجتماعى قبل كل شىء . وهو يستعمل المسرح وسيلة لشرح المشكلات الاجتماعية ، وليس هو مع ذلك الوسيلة الوحيدة .

وقد بحث الدين ومستقبل الإنسان ، والحب والحكومة والبغاء والفلسفة ، فى نحو ثلاثين أو أربعين مسرحية . ومعظم مسرحياته كوميديات قد طعم فيها التفكير الاجتماعى بالفكاهة .

وقد تجددت المسارح الأوربية بهذا الاتجاه الجديد الذى ابتدعه هنريك إبسن ، ودعمه برناردشو . فالدرامة الأوربية واقعية ، تجابه الحقائق وتعالج المشكلات ، وليست رومانتية خيالية تعيش فى الأحلام والأمانى .

* * *

الكلام عن فلسفة برناردشو يحتوى أيضاً بحث ديانته وأدبه وفنه ، لأنه يعالجها جميعها بالروح الدينى . وقد ولد قبل أن يظهر كتاب داروين « أصل الأنواع » بثلاث سنوات . ورأى واشتبك فى المعارك الثقافية

حول هذا الموضوع . ورأى الصدمة التى أحدثتها العقيدة الجديدة ، وهى أن الإنسان والحيوان من أصل واحد .

وعندما نقرأ درامته الكبرى « الإنسان والسوبرمان » نحس أن هذا الكتاب هو الامتداد لكتاب أصل الأنواع ، كما هو إيمان دينى جديد يدعو إليه برناردشو خلاصته أن ارتقاء الحضارة فى المسكن والملبس والتنقل ليس ارتقاء للإنسان ، وإنما الارتقاء الصحيح هو أن يطول عمره إلى ألف سنة ويزيد مخه إلى كيلوجرامين . وأن يكون حصيناً من الأمراض منذ ولادته إلى يوم وفاته . وهذا هو السوبرمان الذى يجب أن يستولد من الإنسان بالانتخاب الحكومى ، بحيث يكون منا كما نحن من القردة . أعلى فى سلم التطور ، وأذكى ذهناً ، وأسلم غرائز .

وقد اصطدم برنارد شو مع الداروينيين من حيث إيمانه بأن الصفات المكتسبة تورث ، وأن الوراثة ليست جامدة كما اعتقد ڤيسمان . وفى السنة الماضية عندما احتدم النقاش بشأن هذا الموضوع بين ليسنكو الذى دافع عن وراثة الصفات المكتسبة ، وبين القائلين بأنها لا توزث ، وأن الوسط لا يؤثر فى تغيير العناصر الوراثية ، وقف برناردشو إلى صف ليسنكو أو قل إلى صف لامارك قبيل مائتى سنة . وديانة شو كما نفهمها من مؤلفاته ومن حياته أيضاً هى الديانة البشرية التى تنأى عن الغيبيات ، فإن درامته عن المسيحية « أندروكليس والأسد » تحملنا على الاعتقاد بأنه لا يختلف عن رينان فى بشرية المسيح ، وأن الله كائن فى الإنسان ، ولكن إله برنارد شو هو قوة الحياة التى تقف خلف التطور ، وتعمل للارتقاء ، وتسير مكافحة نحو النور والحب . وإلى هنا تقف « غيبياته » ، غيبيات لا ترضى المؤمن ولا تقنع الملحد ، وهى أقرب الأشياء إلى برجسون . وعندى أنها بعض رواسب القرن التاسع عشر التى علقت به هو وبرجسون ، كما تعلق أساليب الطفولة بالرجل الناضج . وهو يقول : « إنسان بلا دين

هو إنسان بلا شرف . وهذه عبارة سامية قد استنتجها من حياته . إذ هو لم يؤلف قط كتاباً أو رسالة إلا بروح الدين . أى بروح المسئولية أمام المجتمع . بل ماذا أقول ؟ أمام البشر والأحياء والتطور . ومن هذه العبارة أيضاً نفهم أن نظرته للدين اجتماعية أخلاقية .

ومهمة الفلسفة هى فى النهاية إيجاد النظريات . والجاهل يحتقر النظريات . ويزعم أنه عملى . ولكن ليس هناك من الأشياء العملية ما هو أفضل من النظرية الحسنة . لأننا نقتصد بها ، ونستغنى بها عن كثير من المجهود العابث .

وكلاهما ، برناردشو وبول سارتر : يقول بحرية الفرد من حيث حقه فى أن يعمل كما يشاء . ولكن الهدف يختلف بينهما . فإن برناردشو يبغى من هذه الحرية خير المجتمع ، من حيث إن حرية الإنسان تسير به نحو الخير إذا أدى الخير ، ونحو الهلاك إذا قدم الشر . فالمجتمع كاسب من هذه الحرية . دعوا السكير والنهم والمستهتر والمجرم يمارس كل منهم حريته ، لأنها فى النهاية ستقضى عليه بالهلاك فينتفع المجتمع . ولكن بول سارتر يقول فى خسة فلسفية ليس لها نظير : « أنا وحدى » وعلى المجتمع السلام !

وبرناردشو مثل واز ، ينظر النظرة البيولوجية للإنسان فيقول بضرورة التطور . أجل . إن التطور هو الديانة الأصلية عند شو .

مات برنارد شو وكان أجمل الأساطير فى حياتى . ولقد رافقته وتعلمت منه ، وحاولت أن أقتدى به ، فكنت أصل أحياناً وأقصر أحياناً . ولقد حرصنا بالقدوة والعمل على أن نمارس الأدب لخدمة الجمهور ، وبعض هذه الخدمة أن نجعل ساستنا وقادتنا متمدنين مستنيرين . وهذا هو ما حاولت ، ولكنى للأسف لم أنجح .

ولقد أوصى بأن يحرق جثمانه فى المرمدة . وقد أحرقت زوجته

فيها من قبل ، كما أحرق جثمانا صديقه ولز وزوجته . وهذا الاحتراق هو طهارة أخرى مارسها شو فى موته كما مارس النباتية فى حياته .

° ° °

مما يستحق الملاحظة أن الأمم العربية جميعها فهمت النهضة على أنها التحرر من الأجنبى المستعمر ومن الوطنى المستبد . فطالبت بالاستقلال والدستور ، واعتقدت أن كل شىء من أمانيها قد تم . ولكن الأمم الأوربية فهمت النهضة أو النهضات المتوالية فيها على أنها قبل كل شىء تحرير الضمير البشرى . ففصلت الدين من الدولة ، وكافحت التقاليد ، وتمردت على سلطة البابا ، وألغتها واعتنقت العلوم ، ومارست الفنون التى تعمل للتنوير الذهنى والسعادة البشرية . وهذا مالم تفكر فيه الأمم العربية إلى الآن مع أنها تحمل من أعباء الظلام ما يرهق الضمائر ويسود العقول .

والناهضون فى أوربا هم علماؤها وأدباؤها وليسوا ساستها . وهم جاليليو الذى خالف الكنيسة وأثبت أن الأرض تدور حول الشمس . هم لوثر الذى انفصل من البابا وترجم الكتاب المقدس . هم دافنشى الذى قال بأن الجبال كانت البحار تغمرها . هم داروين الذى أرجع الإنسان والحيوان إلى أصل واحد . هم رينان الذى قال ببشرية المسيح . هم إبسن الذى رفع المرأة من الأنثوية إلى الإنسانية .

هؤلاء هم الناهضون الذين غيروا أوربا ، وبرناردشو واحد منهم فإنه بأسلوب عيشه ومؤلفاته المسرحية دعانا إلى حياة الطهر ومكافحة النفاق الاجتماعى . وكانت مهمته تحرير الضمير البشرى من الخرافات والتقاليد والجبن الفكرى ، وبعث الآمال فى مستقبل البشر على هذه الأرض . وصحيح أنه كافح قوات الظلام التى يمثلها الاستعمار

والاستبداد ، ولكنه كافح أيضاً ، وبقوة أكبر ، قوات الظلام التى تمثلها التقاليد وموروث العقائد الغيبية .

ولو فهمنا نحن المصريين دلالة النهضات الأوربية وعملنا لتحرير ضميرنا ، لكان لنا إلى جنب الحرية السياسية حرية أخرى أكفل للسعادة وأعمل لتكوين الشخصية . ولكان لنا منها موقف آخر حيال المشكلات الاقتصادية والأخلاقية والثقافية . وفى هذه الحال ما كان لمستبد أن يحبس عقولنا بقوانين تحد من حرية الصحافة ، أو يسلط علينا بوليس الأفكار ، كى يعين لنا ما يجوز وما لا يجوز أن نفكر فيه ونكتب عنه .

أجل . إننا ما زلنا بعيدين عن دلالة النهضات الأوربية .

* * *

ليس من الصدق أن أزعم أنى اقتديت ببرنارد شو . فإنه رفع نفسه إلى مستوى عال من « العيش الساذج مع التفكير السامى » وعاونه على ذلك وسط متمدن لم أجد أنا مثله إلى يوم خلع فاروق فى مصر حيث يكافأ الرذل على رذيلته ويعاقب الفاضل على فضله . والأصل فى هذه الحال المعكوسة هو الإنجليز من ناحية والتقاليد الشرقية من أخرى .

ولكنى حاولت ، وكررت المحاولات ، ولم أتعب ولم أسأم . وخير ما أخذت عن برناردشو هو هذا الروح العلمى الذى يسود مؤلفاتى ، فإنى مثله علمى الذهن أدبى الوسيلة فلسفى الهدف . أمتاز بالتفكير العلمى والتعبير الأدبى . وهذا إلى أنه حبب إلىّ الاشتراكية ونقلها عندى من منطق العقل إلى عاطفة القلب . أجل . إنه جعلها ديانتى العملية . فليس البر عندى إحساناً وصدقة ، وإنما هو البرنامج الاشتراكى الذى يوفر

لكافة الشعب طعام الجسم وغذاء الذهن وحرية الضمير والإقدام على المستقبل .

وهو ، بعد داروين ، الذى جعلنى أستمسك بالتطور وأجعل منه الديانة المذهبية لحياتى وفكرى وموقفى البشرى . وقد كان هو يقول بالحاجة إلى « وزارة للتطور » تعمل لترقية السلالات البشرية . وهذا تفكير يعلو علوًّا عظيما على الصغائر التى يشتبك فيها صغار الأدباء .

وحين أعود إلى الأفكار التى بثها فى نفسى برنارد شو ، وحين أنظر إلى الدنيا من عدسته ، أحس السرور والغضب والإقدام والشجاعة والجهد والإرادة . أجل . أحس أن حياتى ترتفع إلى مقام التاريخ وأن لوجودى دلالة فلسفية .

* * *

مات برناردشو بعد أن ملأ الدنيا بفكاهاته ، وهى فقاقيع الحكمة . فكنا نضحك ونتعلم . نحن الآن أقل ثراء فى النفس وذكاء فى العقل مما كنا فى أيامه .

وقبل أن يموت بأيام قال زعيم الفكاهة هذا يصف عالمنا فى عام ١٩٥٠ : إن بين كل أمة وأمة حرباً باردة . وبين كل فرد وفرد من أبناء الأمة الواحدة حرباً باردة . وبين كل إنسان ونفسه حرباً باردة !

هذا ما قاله زعيم الفكاهة . وهى كلمات موجعة تصف عالمنا التعس الحاضر . .

* * *

لما مات برناردشو أطفئت الأنوار فى نيويورك خمس دقائق ، وكذلك أغلقت المدارس فى الهند يوماً كاملا ، وجرى مثل ذلك أو قريب منه فى أقطار أخرى . ولكن مصر لم تفعل شيئاً من هذا ، كأنها تعيش

فى ذهول لا تقدر القيم الأدبية والاجتماعية فى العالم . والواقع أنها كذلك .

ولو كانت هناك أمة مدينة لبرناردشو لكانت مصر فإن الصفحات القليلة التى كتبها عن دنشواى تحمل من غلواء الذهن والعاطفة ما ينظمها فى عداد الأدب العالمى والبلاغة السامية ، وستعيش هذه الصفحات وسيقرأها ، كما قرأها ، الملايين الذين سيغضبون من الاستعمار وسيعرفون منها حق مصر وباطل بريطانيا .

ولو كنا أمة عصرية لنقلنا إلى لغتنا جميع مؤلفات برنارد شو ، ولكانت هذه المؤلفات جديرة بأن تحدث نهضة اجتماعية وأدبية . فإن تفكيرنا السياسى جامد ، ونشاطنا الأدبى إما رجعى يتعمق ظلام القرون الماضية ، وإما سطحى يتبهرج بالألوان على صفحات الجرائد والمجلات . كأنه عبث الصبيان .

ولذلك ما كان أحوجنا إلى التوجيه السيكلوجى الاجتماعى الذى يتسم به أدب برناردشو . بل ما أحوج الأديب والسياسى معاً إلى هذا التوجيه .

obeikandi.com

# غاندى

## داعية الاستغناء

ولد غاندى إنساناً ومات قديساً .

ولم يكن غاندى مؤلفاً من حيث فن التأليف الكتابى وإخراج الكتب ، ولكنه ألف ما هو خير من الكتب . ألف حياته التى كانت مصباحاً منيراً نحو أربعين سنة للبشر من جميع الطبقات . وقد كانت دعواته أو رسالاته متعددة ؛ فقد دعا إلى الوطنية الهندية ومحاربة الاستعمار وإلى الاستقلال والحرية كما دعا إلى المغزل والمنسج وإلى الطعام النباتى .

ولكن كل هذه الدعوات كان يسودها روح القداسة . ولذلك نستطيع أن نقول إن دعوته الأولى هى القداسة .

ذلك أن وطنيته لم تكن للهند وحدها وإنما كانت إخاء بشرياً لسكان هذا العالم كله .

ولم يكن كفاحه دمويًّا قائماً على البطش والدم، وإنما كان مقاومة سلبية تنهض على حض الهنود على ألا يتعاونوا مع المستعمرين لهضم حقوقهم وضغط حرياتهم . ولم يكن تدينه لديانة آبائه فقط ، أى الهندوكية . إذ هو كان يجعل صلاته حافلة جامعة للإنجيل والتوراة والقرآن ، والكتب الهندوكية المقدسة . وقد صام أكثر من نصف عام على فترات كى يحمل الهندوكيين والمسلمين على الإخاء . وبذلك رفع السياسة إلى مستوى القداسة .

وقد كتب تاريخ حياته فى أسلوب شعبى ساذج يخلو من التبرج لأنه لم يكن كاتباً أديباً لعوباً . ومن هذا الكتاب نحس قداسته . ونهفو إلى ذكراه فى حنين وحنان معاً . كما نهفو إلى ذكرياتنا للأم الحبيبة أو للعشيقة التى أوسعتنا سعادة السنين ، أو للابن الذى حملناه على صدورنا وقبلنا وجنتيه الطريتين .

وذكرى غاندى عندى هى نشوة يغمرنى فيها إحساس فنى كذلك الإحساس الذى أنتعش فيه حين أرى الشفق الزاهى والحقول النضرة والرسم الرائع .

وليست عظمة غاندى من ذلك النوع الذى يحملنا على احترامه ، إذ ليس هناك مكان فى قلوبنا لذكراه سوى الحب . وحيث يكون الحب العميق لا يكون الاحترام .

وإنى لأكتنز كنوزاً نفيسة فى حياتى لا أرضى بها بدلا . هى أنى عشت وعاصرت تولستوى وبرنارد شو وشفيتزر وغاندى ، وكلهم قديس . وليست قداستهم من ذلك النوع القديم حين كان ينزوى الراهب فى صومعته بعيداً عن المجتمع كى ينشد خلاص نفسه بالصلاة . لأن هذا الراهب هو فى صميمه أنانى يطلب الخلاص لنفسه فقط . ولكن

هؤلاء القديسين العصريين كانوا يتألمون ويصومون ويكافحون من أجل خلاص البشر .

وقد استطاعوا أن يغيروا الأوزان والقيم البشرية ، وأن يغرسوا فى قلوبنا حباً جديداً وأن يعلمونا أسلوباً فلسفياً للعيش .

مات غاندى فى سنة ١٩٤٧ وهو أعظم رجل فى العالم . ومع ذلك كان كل ما يملك عنزة تدر له اللبن وشملة تكسو جسمه لا يزيد ثمنها على ثلاثة أو أربعة قروش .

وكان يغزل بيده ويكتب ويشترى القليل من الفواكه أو الجبن بما يكسب . وبذلك نصب غاندى أمام العالم كله مثالا يحتج به على أساليب عيشتنا الاقتنائية . ويوضح لنا أن السعادة والشرف والمكانة أيسر من أن نتكلف من أجلها جميعاً هذا الجهد ، بل هذا العذاب فى اقتناء المال والهرولة التعسة التى نعيش بها من أجل التكاثر بهذا المال .

والمفهوم العام للنسك هو أنه عادة أو رهبنة دينية قد نشأت فى الأمم الشرقية ، وهو كذلك إذا فهمناه على أنه انزواء فى صومعة .

ولكن الحرمان الذى فرضه على نفسه كل من برنارد شو وتولستوى وغاندى وشفيتزر هو نسك آخر ، نسك غربى ينهل على أسس من الثقافة الغربية غايته خدمة المجتمع وإنهاض البشرية وتجديد القيم الاجتماعية . بل إنه ليس نسكاً ، لأن المعنى الأصيل للنسك أنه الحرمان من بعض الملذات فى الطعام أو الشراب أو اللباس أو السكنى أو إشباع الشهوات . ولكن هؤلاء الأربعة الناسكين لم يحسوا ، وهم يحرمون أنفسهم ما نحسب أنه متاع ، أنهم قد فقدوا شيئاً لأنهم قد أخذوا بقيم جديدة تجعل ما نعتز أو نلتذ أو نفخر به من ثراء أو اقتناء ، تافهاً لا يحرص عليه الرجل العظيم بل لا يباليه .

حادثة واحدة فى حياة غاندى تدلنا على أن استغناءه لم يحمل معنى القهر ، وهو انقطاعه عن الاتصال الجنسى منذ بلغ الرابعة والثلاثين فهو لم يكن يقسر نفسه على هذا الحرمان . ولم يكن يحس أنه حرمان . ذلك لأن الآمال والآفاق التى كان يترامى إليها تفكيره كانت تغمر نفسه ، وتشغل كل وقته ، وتهيب به ، بما تحمل من عظمة ومجد ، أن ينسى مادونها من ملذات أخرى . فهو لم يكن يشتهى طعام اللحم أو الاتصال بالمرأة أو اقتناء الثراء لأن نفسه كانت مغمورة بما هو أسمى . فالانكفاف هنا ليس قهريًّا أمريًّا وإنما هو سيكلوجى . أى أن غاندى قد سد القنوات فى شهواته لأنه جمعها كلها نهراً واحداً نحو غاية موحدة هى الإنسانية .

وكى يفهم القارئ هذه الحال ، عليه أن يذكر مثلا ذلك الأب الذى يفقد ابنه الحبيب ، فإن كثيراً من الآباء فى هذه الحال يحسون صدوداً عن المرأة كأن الشهوة الجنسية قد أصبحت حراماً لا يجوز لهم الاستمتاع بها بعد أن ثكلوا الابن الذى أحبوا . وهذا الصدود هو فى منطق النفس نذر لشىء آخر .

وكان نذر غاندى الذى سد قنوات شهواته جميعها تقريباً هو حب البشر واستقلال الهند ومحو النجاسة وطرد الإنجليز .

* * *

ومما ينبهنا فى حياة غاندى أنه على الرغم من المسحة البدائية الساذجة التى تبدو بها صورته لنا إنما كان غريباً فى ذهنه عصريًّا فى فكره . بل أكاد أقول إنه كان ماركسيًّا فى أسلوب كفاحه للإنجليز ، من حيث إنه فهم الاستعمار على أنه استغلال للأرض والبشر فى الهند لمصلحة الإنجليز فجعل مكافحته قائمة على الاستكفاء الاقتصادى بتعميم المغزل والمنسج ومقاطعة المصنوعات الإنجليزية .

ولم تكن دعوته للمغزل إيثاراً لهذه الآلة اليدوية الصغيرة على مصانع الغزل الكبرى التى يعول فيها على الحديد والنار ، وإنما هو وجد أن ظروف الهند . وهى ظروف الحرمان والفاقة والفراغ ، مع الجوع فى الريف وترصد الإنجليز لأية نهضة اقتصادية وتصديهم لقتلها فى المهد ، كل هذا جعله يفكر فى الوسيلة التى تعم البيوت الهندية حيث يعمل الأب والأم والأبناء فى الغزل دون أن يستطيع الإنجليز أن يتدخلوا ويمنعوا .

والمتأمل للحركات الوطنية فى مصر والهند وتركيا يجد ظاهرة تستحق الالتفات ، هى أن جميع الوطنيين فى هذه الأقطار الذين قادوا هذه الحركات قد امتازوا بثقافة أوربية وأخذوا بالقيم والأوزان الأوربية .

أما الشرقيون الذين نشأوا فى حضن الثقافات التقليدية الدينية أو الاجتماعية فلم يتزعموا هذه الحركات ولم يستطيعوا أن يغذوها بتفكيرهم . فإن دعاة الوطنية الهندية : طيلاك وغاندى ونهرو قد تعلموا جميعهم فى أوربا . وكان أتاتورك مقاطعاً بل مجاهداً فى مقاطعته للأخلاق الشرقية . وهذا هو الشأن أيضاً فى مصر حيث نجد أن الزعامة الوطنية والانتهاض القوى العام والدعوة للاستقلال يحمل علمها ولا يزال يحمله أولئك المستغربون الذين تعلموا فى أوربا ، أو أخذوا بالثقافة الأوربية وما تحمل من أوزان وقيم جديدة فى السياسة والأخلاق والاجتماع .

وقد كان الاستعمار البريطانى فى الهند يؤيد تقديس البقرة ويؤيد نظام المنبوذين ويؤيد حجاب المرأة . لأن أعظم مايؤخر هذه الأمم الشرقية هو هذه التقاليد المتحجرة . بل لولا هذه التقاليد لما استطاع الاستعمار أن يطأ بقدميه أرض الهند أو مصر .

ولعلنا لا ننسى هنا أن الإنجليز كانوا يعارضون حركة قاسم أمين

بشأن تحرير المرأة ؛ وكانت ناظرة المدرسة السنية الابتدائية للبنات تصر على اتخاذهن للبرقع .

ولكن الاستعمار مذهب غربى وهو ؛ مع أنه يدوس الأمم الشرقية ؛ لا يزال يحمل فى طياته السم الذى يقتله فى النهاية . لأنه ينقل معه الثقافة الأوربية التى تحيل بعض الشرقيين إلى أوربيين فى الذهن والعاطفة والنظرة . وهؤلاء يفكرون وينتهون إلى دعوة الاستقلال والتحرير من شيئين معاً وهما الاحتلال الأجنبى وأيضاً التقاليد المتحجرة .

ولذلك ماكاد الهنود يجلون الإنجليز حتى عمدوا أول ما عمدوا إلى إلغاء نظام الطبقات الذى كان يؤيد بقاء المنبوذين وولوا منبوذاً وزارة المعارف . كما منحوا المرأة حق المساواة بالرجل فى الميدان الاجتماعى وأيضاً حق الانتخاب للبرلمان وللوزارة . وهم فى ذلك يشبهون مصر .

وليس شىء فى الدنيا أسوأ من الاستعمار الأجنبى سوى التقاليد الشرقية المتحجرة . وليس شىء فى الدنيا أسوأ من التقاليد المتحجرة سوى الاستعمار الأجنبى . ولكن مع ذلك حين أتأمل بعض الأمم التى لا تزال تعيش فى استقلالها واستبداد تقاليدها أحس كأنى أرغب فى استعمار أجنبى يصفعها الصفعة المنبهة التى توقظها وتنبهها وتحملها على إلغـــاء تقاليدها .

* * *

ثلاثة رجال يبرزون فى حياة غاندى من حيث تكوينه وتوجيهه فى التفكير الاجتماعى . وهؤلاء هم : ثورو وتولستوى وروسكين . وكانوا جميعاً من المتمردين على الحضارة الأوربية يحاولون الارتداد عنها إلى ما هو أبسط وأقل تعقداً وأميل إلى الخدمة والتعاون دون السلطة والاستثمار .

ولا يستطيع المتأمل لنشاط هؤلاء الثلاثة ، الدارس لأفكارهم ونظرياتهم ومثلياتهم ، أن يقول إنهم كانوا على بصيرة تامة بالحضارة الأوربية ومنتهاها ، ولكن تمردهم كان بمثابة التنبيه إلى ما فيها من أخطار تلصق بالمجتمع الاقتنائى الذى انتهت إليه حيث يعيش كل فرد وغايته الاقتناء والإثراء فى مباراة عنيفة قاتلة .

كان ثورو أمريكياً ، ولد فى عام ١٨١٧ ومات فى عام ١٨٦٢ . . واشتغل بالتعليم وبغيره . ولكنه فى عام ١٨٤٥ ترك حياة المدن وهاجر إلى الغابة ، حيث بنى لنفسه كوخاً وجعل يعيش حياة بدائية يصيد السمك من بحيرة قريبة ويأكل الثمار البرية ويعمل بالأجرة فى الحقول القريبة .

وكان يقضى معظم وقته فى تأمل الحيوان والنبات فى الغابة . وهو واضع عبارة « العصيان المدنى » التى أخذها عنه غاندى . وكان يعنى بهذه العبارة أن لكل فرد الحق فى أن يستقل بشخصيته ويرفض العادات والمطامع الاجتماعية ويعيش وفق مثلياته الخاصة وهو عاص لا يخضع للمجتمع . وبقى إلى عام ١٨٤٧ بالغابة حين عاد إلى المدينة وعاش مع صديقه « إميرسون » وألف كتاباً بعنوان « والدن أو الحياة فى الغابة » .

وهو يروى فى هذا الكتاب اختباراته ، وكيف أن حاجاته جميعاً من لباس وغذاء وسكنى لم تكن تكلفه سوى القليل من الجهد والقليل جداً من النقود .

وواضح أن غاندى حين ترك المدن وآوى إلى معتكفه فى الطبيعة يقنع بما تدره عليه عنزته من اللبن والجبن ، وأيضاً بقنوعه بتلك الشملة التى كان يشتمل بها دون أى لباس آخر ، إنما كان يستضىء بثورو فى حياته فى الغابة . ومكافحته للإنجليز الاستعماريين بشعاره « العصيان المدنى » يعود إلى القدرة على الاستغناء . فإنه نبذ الرفاهية فضلا عن البذخ وقنع

بالقليل الذى لا يستطيع الإنجليز أن يحرموه منه . وكان ثورو على الدوام فى ذهنه : رجل قانع يعمل عندما يحتاج ، ويرتاح ويتأمل الشمس والشجر والماء والسحاب عندما لا يحتاج . والحضارة القائمة تدعونا إلى الاقتناء والإثراء والجهد والمباراة . ولكن عبرة ثورو هى كيف نستغنى ؟ وليس كيف نقتنى ؟

أما تولستوى فليس هناك من يجهله . فقد ولد فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١١ وكان فناناً عظيماً يؤلف القصص الخالدة كما كان أخلاقياً متمرداً على الحضارة أيضاً مثل ثورو . وقد حرمته الكنيسة الروسية لأنه ألف كتاباً عن إيمانه وصف فيه المسيح باعتبار أنه إنسان عظيم لا أكثر ، وأن دعوة المسيح إلى الحب البشرى هى الخلاص لجميع الناس وأن « ملكوت الله » كما جاء فى الإنجيل ليس حياة أخرى بعد الموت وإنما هو فى قلوبنا وأنفسنا وعالمنا هذا ، وأنه يتحقق بالحب بين البشر . وقد عاش فى الأرض التى ورثها عن عائلته وحاول تسليم هذه الأرض للفلاحين ، ولكن عائلته منعته ، وكان يصنع الأحذية بنفسه للفلاحين ، كما أنه أنشأ مدرسة لأولادهم وأصدر مجلة فى التربية .

وقبل وفاته بنحو عشرة أيام خرج هارباً من بيته يريد أن يرضى ضميره ويعيش كأحد الفلاحين .

وقرأ غاندى مؤلفاته وهو فى أفريقيا الجنوبية فتأثر بها كثيراً . وكان أن أسس ما سماه « مزرعة تولستوى » حيث كان يعلم أبناء الهنود ويزرع أرض المزرعة ، ومن هنا نشأت عنده فكرة التعليم بالعمل ، وهى الفكرة التى أحالت التعليم إلى تربية .

ويرى كثير من الناقدين أن الخطة التى اتبعها غاندى فى مكافحته للاستعمار فى الهند وهى « المقاومة السلبية » أى تقبل العدوان فى صمت

وثبات إنما ترجع إلى تعاليم تولستوى فى شرحه للمسيحية : هذا الشرح الذى جلب عليه حرمان الكنيسة له حتى قال رومان رولان الأديب الفرنسى المعروف : « وحسبى ما قلت كى أبين أن غاندى كان ينطوى على قلب إنجيل خافق تحت كساء من الإيمان الهندوكى . أما روسكين الذى أحبه أيضاً غاندى فكان من الأدباء الإنجليز . وقد ولد فى عام ١٨١٩ ومات فى عام ١٩٠٠ . وألف عدداً كبيراً من الكتب فى الفنون والأخلاق والاجتماع . ولما مات أبوه عام ( ١٨٥٥ ) ترك له ثروة قدرت وقتئذ بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه فلم يمسكها بل تبرع بها للمنشآت الاجتماعية والتعليمية وقنع هو بأن يعيش بقلمه .

° ° °

لم يكن غاندى يضع القواعد كى يتقيد بها . وإنما كان يفرض القاعدة أو المبدأ للاسترشاد الأخلاقى فى الخطة العملية . ولذلك نجد أن التزامه للمقاومة السلبية لم يكن جامداً . إذ هو كان يلجأ إلى العمل الإيجابى من وقت لآخر . أى أن « العصيان المدنى » لم يكن عنده ركوداً أو اعتزالا أو جموداً ، وإنما كان أيضاً عصياناً مباشراً كما نرى فى حادث الملح .

ذلك أن الحكومة الهندية كانت فى استغلالها الإمبراطورى تحتكر صناعة الملح ، وهو إدام أو تابل يحتاج إليه كل فرد . فالكسب عظيم منه والضرورة تكفل رواجه الدائم . ورأى غاندى فى سنة ١٩٣٠ أن هاهنا فرصة يجب أن تستغل لتحريك التمرد على الاستعمار وتجرئة الشعب الهندى على عصيان القوانين والأخذ بالشجاعة ، فدعا إلى مظاهرة شعبية تبدأ من معتكفه حيث كان يقيم إلى شاطئ البحر حيث الملاحات الحكومية .

وهناك يخالف غاندى القانون عمداً وينزل المتظاهرون إلى الملاحات

ويحملون الملح مجاناً . وكافح المستعمرون هذه المظاهرة بكل الوسائل ووجدوا من الهنود أنفسهم من أيدهم فى تزييف هذه الحرية أو شلها ، فمنعوا القطارات من السفر إلى الشاطئ . ومنعوا الخطابات . وعطلوا الصحف وراقبوها . وأوفدوا البوليس والجيش يحمل كل فرد منهم هراوة ضخمة ، ثم أنحوا على المتظاهرين بالضرب أو بالأحرى بالخبط حتى تحطمت الرءوس والأجسام وخضبت الأرض بالدماء وألقوا القبض على رأس الفتنة وداعية العصيان غاندى .

ولكن كل هذا لم يهزم المتظاهرين . وبقى العصيان يفشو ويزداد . وامتلأت السجون وفاضت . فأسس الإنجليز حظائر من الأسلاك يحبسون فيها الثائرين ، وأصبح المسجونون يعدون بمئات الألوف . وانتشر روح التمرد فى جميع أنحاء الهند فامتنع المالكون من أداء الضرائب واستقبال ألوف الموظفين . وتراءى للإنجليز أن الثورة تسير فى طريق النجاح وأن الأداة الحكومية قد شلت . وعندئذ فكروا فى أسلوب آخر للمكافحة . فإنهم إلى جنب الضرب والاعتقال عمدوا إلى الحكم بالغرامات ، ولكنها كانت تجربة تعلم منها غاندى وتعلم الهنود كيف يكافحون . وفهموا وفكروا ودبروا .

وفى عام ١٩٣٩ عند شبوب الحرب الكبرى الثانية ترك غاندى هذا الأسلوب القديم للمكافحة . ودعا دعوة أخرى هى « اتركوا الهند » .

وترك الإنجليز الهند فى عام ١٩٤٨ . وتحقق الاستقلال .

* * *

وكان الهنود يعيشون أيام الإنجليز فى تقاليد الفقر والجهل والمرض ، وليس شىء يعمل للذلة والهوان مثل هذه العناصر الثلاثة التى تجمع شرور العالم كلها . وهى العون الأول للاستعمار . ولذلك حاربها غاندى

جميعها بطراز جديد من المدارس يلائم ظروف القرية الهندية . وهذا الطراز هو ما يسمى الآن « التربية الأساسية » .

فى عام ١٩٤٥ كتب أينشتين عن غاندى هذه الكلمات البليغة :

« إن غاندى يتزعم الشعب الهندى لا تؤيده فى هذه الزعامة أية سلطة خارجية . وهو سياسى لا يقوم نجاحه على الحيلة أو المهارة فى الوسائل الفنية إنما على القوة الاقتناعية فى شخصيته ، وهو مكافح مظفر يحتقر على الدوام أساليب العنف . وهو حكيم متواضع قد تسلح بالإرادة كى يتناسق سلوكه ، وقد أرصد كل قواه لأن ينهض بشعبه ويرقى بمصيره . وقد جابه توحش أوربا بوقار إنسانيته ولذلك كان على الدوام يرتفع عليها . إن الأجيال القادمة سوف تشك فى أن إنساناً مثل هذا سعى بقدميه على أرضنا »

وهذه كلمات عظيم قد رأى العظمة فى غيره وفطن إليها .

* * *

علمنا أن غاندى أيضاً حكمة الحكيم ليست بالاقتناء وإنما هى بالاستغناء ، وأننا نستطيع أن نحقق السعادة والمكانة ، وأن ننجز وعد حياتنا على الأرض ، بالقليل من الحاجات دون هذا البذخ الذى يضنينا بلوعة ثم لا يسعدنا الحصول عليه ، وأن ضرورات العيش من مسكن وملبس ومطعم قليلة ، بل إننا إذا أقللنا منها عشنا على أحسن حال كما تتوافر لنا بهذه القلة القوة والوقت للاستمتاعات العالية .

وعلمنا نحن الشرقيين أن الاستعمار عدو لا شك فيه ، ولكن هناك ماهو أعدى منه لنا وهو الاستمساك بعادات وتقاليد وقيم ثقافية واجتماعية شرقية لا يصلح أن تبقى فى القرن العشرين .